الابتلاء وبناء الانسان

قراءة في ابتلاء الامم حسب بيان القران الكريم

بدء الخليقة ـ عيسى (عليه السلام)

السيد عبد الستار الجابري

الى ساحة قمس مولى الموحدين

شبيه يوشع بن نون في امة محمد صلى الله عليه واله

اقدم هذها الجهد المتواضع والبضاعة المزجاة

املا من ساحة كرمه التفضل بالقبول

المقدمة

الحمد لله رب العالمين بارئ الخلائق اجمعين والصلاة والسلام على البشير النذير السراج المنير البدر الزاهر والطهر الطاهر المبعوث رحمة للعالمين سيدنا ونبينا ابي القاسم محمد وال بيته الطيبين الطاهرين المعصومين المنتجبين.

الابتلاء سنة الهية، تفرضها طبيعة علاقة الفرد والمجتمع بالله تعالى لتحقيق التكامل الانساني من خلا التمحيص للوصول الى تحقيق المجتمع الانساني الكامل الذي يكون مؤهلا لحمل الرسالة الالهية وتطبيق شريعة الله تعالى على الارض بعيدا عن الاهواء الشخصية والنزعات الذاتية. كما ان الابتلاء حتمية اجتماعية تقتضيها شخصية الفرد والنزعة الاجتماعية، وتسير احداثها حسب ما تقتضيه ظروف الصراع والاجواء المحيطة به.

وللابتلاء بعدان الاول البعد الروحي وهذا البعد محوره علاقة الانسان بالله تعالى وما يترتب على النجاح في الابتلاء من اثار روحية تظهر نتائجها في حياة الفرد والمجتمع في الدنيا فضلا عن دورها في تحديد مصير الانسان في الاخرة.

والبعد الثاني هو الاثار الدنيوية للابتلاء، ومدى تحديد مسار مستقبل المجتمعات البشرية، من جهة الرقي او الانحطاط، ومن خلال هذا البعد يمكن الوقوف على السنة الالهية في التعاطي مع الجوانب الدنيوية في حياة الشعوب والجماعات.

والمتتبع لحياة المجتمعات يجد ان السنة الالهية قائمة على تهيئة الاسباب المعدة لتحقيق قيام المجتمع الصالح وازاحة الظلم والطغيان والجور والجهل والفساد عن ساحة المجتمع البشري.

وفي هذا البحث سُلطت الاضواء على الجانب الاجتماعي الذي يتناوله البعد الثاني لما له من اثر مهم في حياة الامم والشعوب وتحقيق جانب المسؤولية الانسانية في مصائر الامم والشعوب والجماعات.

وبين يدي القارئ القسم الاول من البحث والذي تناول في طياته مسير الحياة المجتمعية منذ تشكل اول نواة اجتماعية على الارض والى الفترة التي سبقت البعثة النبوية.

سيجد القارئ في هذه الصفحات حديث ابتلاء الانسانية واعدادها للنهوض بمقتضيات العدل والانصاف والصلاح والسعادة، ويتضح من خلالها ان السنة الالهية في بناء الروح المجتمعية بحسب مقتضيات واقع الظروف المحيطة بالمجتمع الانساني كانت على نحوين الاول فترة الفرد الصالح الذي يقع على عاتقه النهوض بمسؤولية المجتمع والتي امتدت منذ نزول ادم (عليه السلام) على الارض وحتى بعثة النبي ابراهيم (عليه السلام)، والنحو الثاني كان اعداد المجتمع الصالح للقيام بأعباء الرسالة مضافاً الى ارسال الفرد الصالح الذي يمثل الامتداد للنحو الاول من بناء المجتمع الانساني، وكان المجتمع الذي كلف بإنجاز هذه المهمة هو مجتمع ال ابراهيم (عليه السلام) بشقيه في بني يعقوب وبني اسماعيل (عليهما السلام) .

وفي المرحلة الممتدة بعد موسى (عليه السلام) وحتى القضاء على مملكة اليهود على يد نبوخذ نصر كان المجتمع المكلف بالنهوض في نشر التوحيد في الارض واقامة دولة الموحدين هو مجتمع بني اسرائيل وقد تحدث القران الكريم كثيرا عن مسيرة بني اسرائيل في هذا المجال.

واما بنو اسماعيل (عليه السلام) فان مرحلة تكليفهم في اقامة حكم الله على الارض شرعت مع بعثة خاتم الانبياء (عليه السلام) وتعثرت حركة بني اسماعيل كما تعثرت حركة بني اسرائيل حتى وصلوا الى ما وصل اليه بنو اسرائيل في مرحلة ما بعد السبي البابلي فهناك اضحى بنو اسرائيل رعايا في الدولة الرومانية، وفي نهايات القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين اصبح المسلمون رعايا بين الدول التي تسري في عمق عقلها الباطن روح الكنيسة الارثوذكسية والكنيسة البروتستانتية بعد ان تلاشى دوراتباع الكنيسة الكاثوليكية بخروج فرنسا من حلبة الصراع في منطقة الشرق الاوسط، ولم ينته القرن العشرين حتى انهار الاتحاد السوفيتي ـ وريث سلطة الكنيسة الارثوذكسية ـ ليخضع المسلمون لسيطرة امريكا ـ وريثة الكنيسة البروتستانتية ـ.

قد يعترض معترض ان لا دور للفكر الديني في فترة الحربين العالميتين الاولى والثانية ومن ثم الحرب الباردة والصراع الاقتصادي، الا ان الواقع على خلاف ذلك تماما وهذا ما برهن عليه وقوف دول الصليب جميعا مع اليونان ضد تركيا في نزاعهما في حوض البحر المتوسط.

تكمن اهمية هذا البحث في الوقوف على عوامل ظهور وانهيار الامم في اطار البيان الالهي لهذا المسير، وهو ما عبر عنه بالابتلاء.

في اثناء اعداد هذا البحث رجعنا الى اشمل موسوعتين لدى المسلمين في اخبار الامم السالفة وهما بحار الانوار لجامعه الشيخ المجلسي رحمه الله وهو من اعاظم علماء الشيعة وله باع طويل في مختلف العلوم الاسلامية وقد ضمن كتابه العديد من المناقشات للروايات الورادة فيه باسلوب علمي موضوعي وكتابه موسوعة جامعة للروايات الشيعية المستقاة من مختلف كتب الطائفة وقد ضمنه صاحب الكتاب بعض الروايات المنقولة عن بعض مصادر اهل السنة، وتاريخ الطبري الذي يعتبر مؤلفة ابو جعفر محمد بن جرير الطبري موسوعة علمية في التراث السني فهو مفسر ومؤرخ وناقد.وبعد هذا وذاك المرجع الاصل في الامور العمدة هو القران الكريم الذي تضمن القضايا المحورية الهامة في تاريخ المجتمعات التي تم التطرق اليها في بحث الابتلاء.

عملنا في هذا البحث على ادراج خلاصة ما امكن استنتاجه في نهاية كل مورد في نقاط كي يسهل على القارئ الرجوع اليها.وفي الختام نسال الله تعالى ان يتقبل هذا الجهد القليل والبضاعة المزجاة ويجعله ذخرا لنا يوم لا ينفع مال ولا بنون الا من اتي الله بقلب سليم.

عبد الستار الجابري

6جمادي الاخرة 1442

21 كانون ثاني 2021

تمهيد

من الواضح في سيرة الافراد والمجتمعات ان الغالب في حال استمرار الترف والرخاء تحقق البعد عن القيم الروحية والأخلاقية والتوجه الشديد نحو الملذات واتباع الشهوات والذي يؤدي الى انهيار المنظومة الأخلاقية المتزنة والتطرف في التوجه الأخلاقي السلبي بمديات مختلفة ودرجات متفاوتة.

وفي المقابل عند وقوع الابتلاء والتعرض للصعوبات والشدائد فان التوجه العام ياخذ جانب الأخلاق المتزنة التي تحقق قدراً جيداً في العدل والانصاف والتكافل والتوازن الاجتماعي ونمو القيم المجتمعية الايجابية.
وقد تعرض القران الكريم في العديد من الآيات الكريمة الى الحكمة الالهية من الابتلاء، كما اشار الى وقائع تاريخية كان للابتلاء والصعوبات دور مهم في اعادة بناء الفرد والمجتمع.
وبالإضافة الى دور الابتلاء في اعادة البناء الشخصي والاجتماعي بينت آيات الذكر الحكيم ان كل ما في الكون يجري ضمن التقدير الالهي الذي يسعى بالنهوض بالإنسان مع حفظ اختيار الانسان في سلوك سبيل الخير او الشر.

وحيث ان البحث يتصدى الى اثر الابتلاء في بناء الانسان فسيقتصر البحث على الاثار في الحياة الدنيوية دون التعرض الى ترتب الاثار الاخروية على الابتلاء.
والى هذه الامور التي بينت اعلاه اشار قوله تعالى في سورة الحديد
﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ لِكَيْ لَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾[1]

انواع الابتلاء

ينقسم الابتلاء الى نحوين:
الاول: الابتلاء المحبب للإنسان، كالمال والاولاد والزعامة والصحة ...
الثاني: الابتلاء غير المحبب للإنسان، كالفقر والمرض ومصادرة الحرية والموت وانعدام الامن وتسلط الحاكم الجائر ....
والى النحو الاول من الابتلاء اشار قوله تعالى

﴿ الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴾[2]

وقوله تعالى:

﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾[3]

والى النحو الثاني من الابتلاء اشار قوله تعالى:

﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾[4]

فكلا النوعين من آي الذكر الحكيم يشير الى الابتلاء الالهي وان مسير الانسان في هذه الحياة الدنيا هو مسير ابتلاء يختبر فيه الانسان في مجال الشكر والصبر، ويكون كل نحو من انحاء البلاء مؤثرا في بناء الفرد والمجتمع حتى يتحقق للإنسان كماله المطلوب بعد ان يمر الفرد في دورة حياته القصيرة بالكثير من الابتلاءات التي يحدد على ضوئها نجاحه الشخصي وليكن مثالا لمن عاصره من ابناء جلدته، كما ان المجتمع على اساس حياته الطويلة الممتد باستمرار الاعقاب بعد الاعقاب التي كونت ذلك المجتمع يشير بقاؤه واستمراره الى نحو من النجاح في الابتلاء وان كان في فترة من فترات حياته كمجتمع قد اصيب بالإخفاق الشديد او النسبي الا ان بين حنايا ذلك المجتمع تكمن فئة من الناس تشكل درجة من درجات النجاح في الاختبار الالهي، كما ان انقراض المجتمع يدل بشكل واخر الى فشل ذلك المجتمع في الاختبار وانه ليس خليقا بالبقاء على الارض مثل قوم نوح وعاد وثمود وسدوم.

الفصل الاول

الابتلاء في المجتمعات البشرية الاولى

هابيل وقابيل قصة الابتلاء الاولى على الارض

---

[1] الحديد: الايات 22 - 23
[2] الكهف:46
[3] الكهف:7
[4] البقرة:155

الحادثة الاولى على الارض التي تحدث عنها القران الكريم عن واقع الابتلاء في النعمة الالهية وطبيعة تعاطي المجتمع البشري معها هي قصة ابناء ادم عليه السلام هابيل وقابيل.

قال تعالى:

﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آَدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآَخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾[5]

الآية الشريفة نصت على عدة امور:

1. ان ابني ادم عليه السلام كانا يمتلكان مما خلق الله تعالى على الارض، اذ ان تقريب القربان يفتقر ابتداءاً الى حيازة ذلك القربان وامتلاكه، كي يتقرب به العبد بعد ذلك الى مولاه، اذ لا يمكن للعبد ان يتقرب للمولى بأملاك الغير لأنه يكون تقرب بالمغصوب، وهذا لا يمكن ان يوصف بانه قربان، وهذا يرد على من يدعي ان المجتمع البشري الاول لم يعرف الملكية وتربية المواشي وان الملكية والعمل كان في مرحلة متاخرة من تطور الحياة البشرية على الارض.
2. تشير الآية الشريفة الى ان المناط في قبول العمل المتقرب له الى الله تعالى تحقق التقوى من العبد عند تقديمه لقربانه وادائه لعمله، وان العمل المجرد عن التقوى لا يترتب عليه الاثر المبتغى.
3. ان قبول القربان كاشف عن تحقق الكمال الروحي عند المتقرب، بينما رد القربان كاشف عن انتفاء صفة التقوى عن العبد وبالتالي عدم تحقق الكمال الروحي عند العبد.
4. ان المتجمع البشري الاول على الرغم من كونه مؤلفاً من عائلة نبوية الا ان ذلك لم يمنع ان يفشل في الاختبار الالهي، فرب العائلة هو ادم عليه السلام وهو نبي اصطفاه الله تعالى من بين خلقه ﴿ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آَدَمَ وَنُوحًا وَآَلَ إِبْرَاهِيمَ وَآَلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾[6] والام هي حواء عليها السلام رفيقة ادم عليه السلام في مسيرة نشر الحياة البشرية على الارض وهابيل او قابيل كلامهما ولد النبي الصلبي.
5. تبين الآية الشريفة ان قابيل اتصف بأخلاق سلبية في تعاطيه العبادي والأخلاقي، عباديا لم يكن متقيا لله تعالى اذ منطوق الآية الشريفة على لسان هابيل:

﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آَدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآَخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾[7]

ومفهومها ان غير المتقي لا يتقبل الله منه، وأخلاقيا ارتكب قابيل عدة تصرفات منافية للأخلاق الفاضلة، اذ حسد اخاه وبدلا من اين يسعى لتطهير نفسه وتحصيل الكمالات الأخلاقية وقع في الحسد ولم يقف الامر عند حسده لأخيه بل اثار الحسد فيه مكامن الغضب الذي دفعه لقتل أخيه

[5] المائدة:27
[6] ال عمران:33
[7] المائدة:27

وبقتله لأخيه تحققت فيه عدة نواقص خلقية وهي معصية الرب وقطيعة الرحم وعقوق الوالدين وقتل النفس المحترمة ظلما وعدوانا.

وفي المقابل كان هابيل عنوانا للكمال الانساني اذ كان تقيا بعيدا عن الحسد والغضب والانفعال مطيعا لله تعالى حافظا لصلة الرحم وبر الوالدين وطاعة الرحمن.

وعن ذلك يحدثنا القران الكريم على لسان هابيل:

﴿لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أخيه فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾[8]

6. اشارت الآية 30 من سورة المائدة ان قابيل بقتله أخيه خسر خسرانا مبينا، وطرد من الرحمة الالهية، وتشير النصوص الروائية الى ان ادم عليه السلام طرد قابيل ولم يسمح له ان يعيش بعد ذلك معهم فابتعد قابيل عنهم، وكان نتيجة البعد ان وجد على الارض مجتمعان مجتمع الصلاح والتقى الذي مثله اولاد النبي شيث بن ادم عليهما السلام ومجتمع المعصية والبعد عن الله تعالى الذي اسس له قابيل وشاع في اولاده[9].

ومن هنا يتضح ان الابتلاء بزينة الدنيا في المجتمع البشري الاول اثر في تحقق مجتمع صالح ومجتمع منحرف عن جادة الحق وكان السبب في ذلك هو اثر الابتلاء الذي تعرض له ابني ادم، فمن هنا يمكن القول ان ذلك الابتلاء اثر اثرا ايجابيا في ذرية ادم عليه السلام منشأه موقف هابيل الايجابي ونجاحه في الاختبار الالهي واما موقف قابيل السلبي وفشله في الاختبار الالهي فكان سببا في وجود مجتمع الانحراف والبعد عن الله تعالى.

مجتمع الظلم ودور الابتلاء

تشير المصادر الروائية التي تحدثت عن بدء الخليقة والمجتمعات البشرية الاولى الى القطيعة التامة بين مجتمع الالتزام الديني والأخلاقي ـ ذرية شيث (عليه السلام) ـ ومجتمع الانحراف ـ ذرية قابيل ـ الا ان حادثة حصلت ترتب عليها اثرها اختلاط ابناء المجتمعين كانت سببا في التلاقي التام بينهم، وبالتالي انتهت حالة الانفصال والافتراق وتبدلت بالامتزاج والتلاقي بين المجتمعين.

وكنتيجة حتمية للزيادة العددية في سكان الارض، تحول المجتمع من مجتمع الإدارة الابوية الى مجتمع السلطة فظهرت الحكومات بشكلها الاداري البدائي لبساطة الجوانب الحياتية في ذلك الزمان.

---

[8] المائدة: الايات 28 - 30

[9] قصص الأنبياء للجزائري:قصة هابيل وقابيل، قصص الأنبياء لابن كثير: قصة هابيل وقابيل، تاريخ الطبري:الجزء الاول قصة هابيل وقابيل.

ادى ظهور السلطة ـ سلطة القرية ـ الى تصدي شخصيات للحكم مارست اساليب الجور والطغيان، في وقت كان الأنبياء منصوبين في المجتمع من قبل الله تعالى ويعيشون بين الشعوب المحكومة، ولهم مقام خاص وهيبة عظيمة تجعل سلاطين الارض يخضعون لهم ويخشون ردود افعالهم.

نصت بعض الروايات ان طغيان وجبروت بعض حكام القرى وصل مرحلة دعت النبي ادريس عليه لسلام الى معاقبة القرية الظالمة بأن دعى الله تعالى ان يمنع عنهم القطر عشرين سنة فاجدبوا وجاعوا، وبعد عشرين سنة من القحط فاءوا وعادوا الى رشدهم فدعا ادريس (عليه السلام) الله تبارك وتعالى ان ينزل عليهم الغيث ويرفع عنهم الجدب[10].

فكان الابتلاء بالجدب والجوع والفقر والفاقة سببا في اعادة بناء الانسان ومنعه من الاستمرار في الطغيان والبعد عن التعاليم الالهية.

كما اشارت النصوص الروائية التي تحدثت عن الفترة التي كانت بين ارتفاع النبي ادريس (عليه السلام) عن الارض وبعثة نوح (عليه السلام) عن شيوع الجهل المعرفي الذي ادى الى ابتعاد الناس عن الدين وعن الأنبياء وتحول المجتمع من مجتمع توحيد الى مجتمع شرك.

ظهور مجتمع الشرك

تشير النصوص الى تدرج الانحراف الفكري الذي شرع بصناعة تماثيل لشخصيات كانت غاية في الورع والتقى وكانوا ملجأ لأقوامهم في مختلف امورهم الدينية والدنيوية، فلما مات هؤلاء الصلحاء حزنوا عليهم فأقاموا لهم تماثيل لتذكرهم بهم ولشدة تعلقهم بهؤلاء الصالحين جعلوا تماثيلهم في البيوت ليكونوا دائما امام نواظرهم وليتذكروا محاسن افعالهم وجميل خصالهم، وبعد انقراض الاجيال الاولى اصبحت الاجيال اللاحقة تقدس التماثيل وتتبرك بها وتتضرع اليها الا ان الحال لم يصل الى عبادتها، وبعد انقراض تلك الاجيال عبدت الاجيال التي جاءت بعدهم تلك التماثيل واعتبروهم اربابا يرزقونهم ويفيضون عليهم الخير ويدفعون عنهم الشر.

في تلك الحقبة الزمنية اصحبت عبادة الاوثان الدين العام للمجتمع البشري فبعث الله تعالى نوحا (عليه السلام) ليدعو الناس الى التوحيد ونبذ عبادة الاوثان.

جوبهت دعوة نوح (عليه السلام) الى التوحيد بمعارضة شديدة من قبل الوثنيين، اذ كان لعامل الزمن والجهل دور كبير في ترسيخ عبادة الالهة المتعددة في الذهن الاجتماعي من جهة، ومن جهة اخرى كانت عبادة الاوثان تمنح قدسية ومقاما اجتماعيا رفيعا لكهنة المعابد الذين اثروا بما كان يقدم للمعبد من هدايا وقرابين، فكان للكهنة دور كبير في تأليب الراي العام ضد نوح (عليه السلام) حفاظا على مكتسباتهم التي تهددها دعوة التوحيد، كما ان العلاقة الوطيدة بين السلطة والكهنة الذي يحقق المنفعة المتبادلة بينهما حيث يمنح الكهنة صفة القدسية للسلطات الحاكمة ويأمرون الشعب باطاعة السلطة بامر الالهة كانت السلطة تمنح الكهنة الحماية وتمدها بمقومات الاستمرار، وكان كل من القصر والمعبد يستغلان الجهل الفكري لتحقيق المكاسب التي يرومونها.

---

[10] انظر بحار االانوار:271/11، قصص الأنبياء للسيد نعمة الله الجزائري وقصص الأنبياء لابن كثير الدمشقي العنوان المختص بالنبي ادريس (عليه السلام) والجزء الاول من تاريخ الطبري المختص بالنبي ادريس (عليه السلام) .

(قَالَ نُوحٌ رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَنْ لَمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا ، وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا)[11]

عند تتبع الآيات الشريفة نجدها تتحدث عن فترة طويلة دعى فيها نوح (عليه السلام) قومه الى التوحيد وترك عبادة الاوثان الا انه لم يستجب له الا عدد قليل من الناس. استمرت دعوة نوح (عليه السلام) 950 سنة لم يؤمن معه الا عدد قليل من البشر قيل انهم كانوا ثمانين شخصا حملهم معه في الفلك، اما الاجيال التي عاصرت دعوة نوح (عليه السلام) فكانت تجري على سيرة ابائها في رفض دعوته، واستمرارهم على العناد والطغيان والكفر والبعد عن الله تعالى[12].

(وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ ، فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ)[13]

لم تشر النصوص التي تناولت حقبة نوح (عليه السلام) عن ابتلاء المجتمع البشري بعقوبات مادية كالجوع والجدب والمرض للردع عن الاستمرار في الانحراف الفكري، بل اشارت بعض الروايات ان نوحا (عليه السلام) كان يتعرض لأنواع الاذى النفسي والجسدي، دون ان تشير الى تعرض ذلك المجتمع الى عقوبة الهية مادية، وعلى الرغم من كل تلك المعاناة كان نوح (عليه السلام) يصبر ويتحمل عسى الله ان يهدي قومه الى الحق وسواء السبيل، بل تشير بعض الروايات انه طلب من الله تعالى ثلاث مرات ان يمهل قومه عسى ان يعودوا الى جادة الصواب وكان كل مرة يطلب من الله ان يمهلهم 300سنة[14].

الطوفان واهلاك المجتمع البشري

بعد مضي تلك الفترة الزمنية الطويلة اخبر الله تعالى نوحا (عليه السلام) انه لن يؤمن من قومه الا من قد آمن فلا يوجد اي امل في ايمان اي شخص ولو من الاجيال المستقبلية

(وَأُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ، وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا ۚ إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ)[15]

فيأس نوح (عليه السلام) من ايمان قومه فدعا الله تعالى ان يهلكهم، فاعقم الله تعالى اصلابهم اربعين سنة وقطع عنهم قطر السماء فأجدبت الارض وجاعوا ولكنهم لم يكفوا عن غيهم ولم يرتدعوا عن ظلمهم، وبعد مضي الاربعين سنة جرت الارادة الالهية بإغراقهم الا من امن مع نوح (عليه السلام)، فاهلك الله المجتمع البشري برمته ليكونوا عبرة لمن يأتي بعدهم من الاجيال[16].

---

[11] نوح: الايات 22 - 23

[12] انظر بحار الانوار ج11 الفصل المتعلق بنوح (عليه السلام)، قصص الأنبياء للجزائري وابن كثير وتاريخ الطبري ج1 / العناوين المتعلقة بنوح (عليه السلام)

[13] العنكبوت الايات 14 - 15

[14] المصادر المشار اليها في الفقرة قبل السابقة

[15] هود: الايات 36 - 37

[16] انظر بحار الانوار ج11 وقصص الأنبياء للجزائري وابن كثير وتاريخ الطبري ج1 / العنوان المختص بالنبي نوح (عليه السلام)

(وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا ، إِنَّكَ إِنْ تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا)[17]

كانت حادثة الطوفان عبرة عظيمة للأجيال التي جاءت بعد تلك الحقبة الزمنية التي نقل الاباء فيها لأبنائهم وقائع الفيضان العظيم الذي غمر الارض وكيف انجى الله المؤمنين واهلك الكافرين، فكان تأثير تلك الواقعة في نفوس الاجيال جيلا بعد جيل باعث على السير على نهج النبي نوح (عليه السلام).

ومضت الاجيال تتلو بعضها بعضا، وشيئا فشيئا اخذ تأثير تلك الحادثة يخبو اثره في النفوس وعاد الناس الى سابق عهدهم من اتباع الشهوات وارتكاب المحرمات وعاد الظلم والجور مع ازدياد نسل الانسان على الارض وظهور التجمعات البشرية الكبيرة وعودة السلطة للظهور كقضية حتمية للتوسع العددي للمجتمع البشري، ولم تلبث الجاهلية ان عادت من جديد ليخبر القران الكريم عن اهلاك عاد وثمود في الفترة التي امتدت بين نوح وابراهيم عليهما السلام

(فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ ، وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ)[18]

الا ان القران الكريم لم يخبر عن اهلاك جميع سكان الكرة الارضية، وفي عهد ابراهيم (عليه السلام) على الرغم من انتشار عبادة الاوثان، حتى وصف الله تعالى ابراهيم (عليه السلام) بانه كان امة

(إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ)[19]

الا ان القران لم يخبر عن اهلاك مجتمع الشرك برمته بل اخبر فقط عن اهلاك قرية سدوم التي بعث اليها النبي لوط (عليه السلام) ليدعوهم الى ترك الفواحش فلم يستجيبوا، وبعد ابراهيم (عليه السلام) اخبر القران الكريم عن اغراق فرعون وجنوده ولم يهلك المجتمع المصري الذي كان يؤله فرعون.

ومن خلال هذا العرض للعقوبات الالهية للمجتمع البشري يمكن ان نستخلص عدة امور:

1. ان المجتمع البشري عاش في رخاء منذ عهد ادم (عليه السلام) وحتى عهد ادريس (عليه السلام) وكان المجتمع مجتمعا موحدا لم تظهر فيه عبادة الاوثان، وان كان المجتمع منذ جريمة قابيل يرتكب المعاصي.
2. ان ادريس (عليه السلام) لجأ الى اسلوب العقوبة الاقتصادية المجتمعية لردع المجتمع الظالم عن ظلمه، وان المصاعب التي عاشها المجتمع نتيجة العقوبة اثمرت عودته الى جادة الحق بعد عشرين سنة من العقاب المستمر.

[17] نوح: الايات 27 - 28
[18] الحاقة: الايات 5 - 6
[19] النحل:120

3. بعد ظهور الشرك على الارض وانتشاره بين البشر، ارسل الله تعالى نوحا (عليه السلام) يدعوهم الى التوحيد فلم يستجيبوا، وفي الفترة الممتدة بين بناء الفلك والطوفان عاقب الله تعالى البشر بالعقم والجدب علهم يرجعون.
4. بعد فترة النبي نوح (عليه السلام) لم يهلك الله تعالى المجتمع البشري برمته كما حصل في الطوفان، وانما وقعت عقوبة الهلاك الجمعي على بعض الاقوام كعاد وثمود وسدوم، وفي عهد موسى (عليه السلام) اهلك الله فرعون وجيشه ولم يهلك المصريين جميعا مع انهم كانوا يؤلهون فرعون، وهذا يكشف عن العلة التي اخبر الله تعالى بها نوح (عليه السلام) وهي ان المجتمع البشري في عهده لن يؤمن منهم الا من قد امن، وكذلك الحال في عاد وثمود وسدوم وجيش فرعون، اما ما عداهم من سكنة الارض فان عودتهم الى التوحيد قائمة في علم الله عز وجل على العكس من تلك الاقوام التي كان في سابق علمه تعالى انها لن تعود الى التوحيد فاهلكهم، وهذه الحقيقة نجدها محققة اليوم على ارض الواقع ففي الوقت الذي لم يكن على الارض موحد سوى ابراهيم ولوط عليهما السلام اصحبت اليوم المجتمعات التي تعتنق التوحيد تملا الارض فأوروبا وامريكا وروسيا يغلب على اهلها النصرانية وافريقيا وبعض اسيا يغلب على اهلها الدين الاسلامي والهند والصين والكوريتين فيها ديانات مختلفة وان كان يغلب عليها الديانات الارضية كالهندوسية والبوذية لا ان فيها نصارى ويهود ومسلمين.

ابتلاءات النبي ابراهيم (عليه السلام)

تشير التنقيبات الاثرية الى ان المجتمع البشري في فترة ما بعد طوفان نوح (عليه السلام) كان يسكن المنطقة الممتدة بين مصر وبلاد الشام وبلاد الرافدين وفارس، ونتيجة البعد الزمني عن فترة الطوفان وازدياد سكان الارض عاد الجهل والتخلف الفكري وشيوع الاساطير والخرافات للانتشار مرة اخرى، خاصة مع قيام الامبراطوريات المتصارعة وتناغم العرش والمعبد على التلاعب بأفكار الناس لتشديد السيطرة واخضاع المجتمع البشري لطاعة الملوك والكهنة[20].

وبعد مضي الاجيال تلو الاجيال عادت عبادة الاوثان للانتشار في الارض كما كانت على عهد نوح (عليه السلام) لتصبح الديانة السائدة على الارض.

وفي تلك الفترة من تاريخ البشر ظهرت العديد من الدول التي مثلت امبراطوريات كبرى في تلك الحقبة الزمنية، كالإمبراطورية البابلية التي حكمت العراق وبلاد الشام وامتد سلطانها الى فارس، والدولة الفرعونية التي حكمت مصر، وكانت الحروب والغزوات واحتلال جيوش الدول لأراضي الدول الاخرى وتدمير ما شيدته الدولة الخاسرة من قصور وعمران ومزارع وبساتين واستعباد اهلها وسوقهم اذلة صاغرين الى عاصمة الدولة المنتصرة، فاذا ضعف سلطان الدولة المقتدرة ثارت ضدها اطراف الدولة وانقسمت الى دويلات متناحرة حتى تنبثق قوة جديدة تتمكن من القضاء على الدويلات المتناحرة للسيطرة عليها.

في تلك الفترة المظلمة من حياة الانسانية المبتلاة بالوان الظلم والتعدي والاستبداد ومصادرة الحريات وانتهاك الكرامة الانسانية والعبث بأفكار العباد بعث الله تعالى النبي ابراهيم (عليه

[20] ول ديورانت قصة الحضارة الجزء المتعلق بالشرق الادنى

السلام) ليقوم بإعادة الانسان الى جادة الصواب والعمل على اعادة بناء الانسان، ويزيح عن العقول غبار الجهل وظلماته، ويعمل على بناء النفوس واثراء العقول وكشف الحقائق، والدعوة الى بسط العدل ونبذ الظلم واقامة قيم السماء على الارض.

ابتدأت قصة النبي ابراهيم (عليه السلام) بتحد عظيم لعواطف ومشاعر وعقائد المجتمع البابلي، حيث ابتدأ نشاطه بتوهين الاصنام في ممارسات عدها ابناء المجتمع البابلي نوعا من الخروج عن الدين الناجم عن مشكلة في السلامة الفكرية للنبي ابراهيم (عليه السلام) بحيث اصبح منظر النبي ابراهيم (عليه السلام) وهو يسحب الوثن في الارض مسالة يومية وهو ينادي في السوق من يشتري ما لا يضر ولا ينفع، فاصبح النبي ابراهيم (عليه السلام) بذلك عنوانا لتوهين الاصنام والكفر بها، ولم يمض الوقت طويلا حتى انتقل النبي ابراهيم (عليه السلام) الى المرحلة الثانية من مراحل ثورته ضد الجهل والكفر فدخل الى المعبد في يوم عيد للبابليين كانوا يخرجون فيه من المدينة ليحطم الاصنام الا الصنم الكبير حيث وضع فاسه على عنقه، وكان هدفه من ذلك اثارة الاستفهام والاستنكار في اذهان من سيحضر محاكمته.

(وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ ، إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَٰذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ ، قَالَ لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ، قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنْتَ مِنَ اللَّاعِبِينَ ، قَالَ بَلْ رَبُّكُمْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ ، فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا إِلَّا كَبِيرًا لَهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ، قَالُوا مَنْ فَعَلَ هَٰذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ ، قَالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلَىٰ أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ)[21]

لم يكن النبي ابراهيم (عليه السلام) شخصا عاديا في المجتمع البابلي الذي كان يعيش فيه، اذ اتصف (عليه السلام) بكل صفات الخير والكمال والصلاح التي كانت تاخذ بمجامع القلوب لما جبلت عليه النفوس من حب الصالحين.

عقدت المحكمة البابلية لمحاكمة النبي ابراهيم (عليه السلام) المتهم الاول في تحطيم الاصنام ولما سألوه ان كان هو الذي حطم الاصنام فأجاب بل فعله كبيرهم فاسألوهم ان كانوا ينطقون. كانت جلسة المحاكمة سببا لإثارة دفائن العقول وقدح طلب الحقيقة فيها، فالجميع يعلم ان الاصنام لا تتكلم فيكف يمكن سؤالها، وبدت الهمهمة تسري في صفوف الحاضرين في جلسة المحاكمة العلنية

(قَالُوا أَأَنْتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ ، قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ ، فَرَجَعُوا إِلَىٰ أَنْفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ)[22]

مما دفع الكهنة وارباب السلطة الى تدارك الموقف لإعادة احكام السيطرة على اذهان الرعية التي اثار الحدث وجلسة المحاكمة فيها بداية الصراع بين المقدس المعتاد ومكانة النبي ابراهيم

[21] الأنبياء: 51 - 61
[22] الأنبياء:61 - 64

(عليه السلام) في النفوس وقوة حجته في قبال عدم وجود جواب للكهنة وارباب السلطة، فارتفعت الاصوات بالمطالبة بإحراق النبي ابراهيم (عليه السلام) والانتصار للآلهة.

(ثُمَّ نُكِسُوا عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ ، قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ ، أُفٍّ لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ، قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانْصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ)[23]

وبدت مرحلة الابتلاء العصيبة، فلم يكتف الكهنة بما جرى بينهم وبين النبي ابراهيم (عليه السلام) حتى رفعوه الى النمرود الامبراطور المتجبر العنيد الذي ادعى الالوهية، فوقف النبي ابراهيم (عليه السلام) كالطود الشامخ في وجه النمرود ليلقمه حجرا في مناظرة علمية كشفت زيف ادعاءات النمرود وانه لا يعدوا كونه مدعيا للربوبية ومستفيدا من تكريس الجهل الذي يعيشه المجتمع ويغذيه كهنة المعابد.

(أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ ۗ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ)[24]

كان لمناظرة النبي ابراهيم (عليه السلام) مع النمرود الاثر الكبير على المجتمع البابلي، هذا التأثير الذي دفع العرش والمعبد لاتخاذ القرار بالتخلص من النبي ابراهيم (عليه السلام) للتخلص من تأثير الهزة الفكرية التي بدت آثارها على المجتمع.

صدرت الاوامر بجمع الحطب ليشهد المجتمع البابلي اكبر حفل احراق في تاريخه للقضاء على حركة التنوير الفكري التي قادها النبي ابراهيم (عليه السلام)، فاخذ البابليون بجمع الحطب لإحراقه انتقاما للآلهة التي مُرغت كرامتها، بينما كان كهنة المعبد والنمرود يقومون بذلك دفاعا عن مكاسبهم التي يؤمنها لهم ترسيخ الجهل في المجتمع آنذاك[25].

لقد كان ما قام به النبي ابراهيم (عليه السلام) حدثا مفصليا في تاريخ المجتمع البشري وليس في حدود بابل والمناطق الخاضعة لها فقط، فعند تحطيم الاصنام بدأت المرحلة الاولى من مراحل الانعتاق الفكري الناشئ من الشك في قدرة الآلهة، اذ كيف يمكن لإله عاجز عن الدفاع عن نفسه ان يكون متصرفا في امور الكون، وفي المرحلة الثانية كان لمناظرة النبي ابراهيم (عليه السلام) مع النمرود اثرها الكبير في كشف الغشاء عن اذهان الناس حيث اثبت النبي ابراهيم (عليه السلام) بالحجة والبرهان ان النمرود ليس الا طاغوتا مدعيا للربوبية وانه ليس ربا وهو عاجز عن ان يقوم بما يقوم به إله النبي ابراهيم (عليه السلام)، واصبح حديث النبي ابراهيم (عليه السلام) حديث المجتمع البابلي الذي تتناقله الركبان، فلم يبق بد من القضاء على النبي ابراهيم (عليه السلام) فصدرت الاوامر بجمع الحطب لإحراق الكافر الذي تعرض للآلهة وحط من قدرها.

---

[23] الأنبياء: 65 - 68

[24] البقرة:258

[25] انظر بحار الانوار وقصص الأنبياء للجزائري وابن كثير وتاريخ الطبري الجزء الاول/ الفصل المختص بابراهيم (عليه السلام)

في الوقت الذي سعى القصر والمعبد للدفاع عن مكاسبهما، كانت مكانة النبي ابراهيم (عليه السلام) تزداد ترسخاً في النفوس لما اثبته بالعقل والمنطق من بطلان إلوهية النمرود وبطلان ربوبية الاوثان.

(قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ، وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ ، وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ)[26]

كان ابتلاء المجتمع البابلي بقضية الاحراق إبتلاءاً روحياً فكرياً، ولم يكن إبتلاءاً ماديا، انه ابتلاء خاطب العقل والفطرة واثبت القدرة الإلهية بعد نجاة النبي ابراهيم (عليه السلام) من النار وثبوت الحقائق التي يدعو اليها النبي ابراهيم (عليه السلام)، كان لذلك الحدث الذي هز الوجدان دوره الكبير في نشر ديانة التوحيد في تلك البلاد وعجز قوى الشرك عن مواجهة القناعات الجديدة للأفراد التي شكلت حركة اجتماعية في الدعوة الى الله تعالى ونبذ عبادة الاوثان.

وهكذا كانت تلك الواقعة ومجرياتها منذ تحطيم الاصنام والى القاء النبي ابراهيم (عليه السلام) في النار ونجاته منها العامل المهم في اعادة بناء الشخصية البابلية في جانبيها الفردي والمجتمعي وانتقل المجتمع البابلي الى النظر الى النبي ابراهيم (عليه السلام) نظرة تقديس تركت اثرها في التعاطي الايجابي مع دعوته الى الله وحفظ مكانة آل ابراهيم (عليه السلام) بعده في تلك البلدان على حد سواء بين الموحدين والمشركين منهم، كما عزز الايمان بالنبي ابراهيم (عليه السلام) والايمان بالله والالتزام بتعاليم الحنيفية التي جاء بها.

ال ابراهيم (عليه السلام) والوادي غير ذي زرع

بعد نجاة النبي ابراهيم (عليه السلام) من نار النمرود سرت دعوته في بابل وكنعان ومصر ـ بعد ان هاجر اليها فترة من الزمن ـ وكانت بابل ومصر اهم امبراطوريتين في تلك الحقبة الزمنية حيث دلت جملة من الروايات ان نمرود هو احد الشخصيات التي حكمت اصقاعا واسعة من الارض.

لقت دعوة النبي ابراهيم (عليه السلام) قبولا وترحيبا في الاوساط الاجتماعية ولم تستطع الحكومات الجائرة ولا المعابد وكهنتها القضاء على دعوته، بل اصبحت الدعوة الى الله تسير بخط مواز للدعوة الى عبادة الاوثان بعد ان مضت حقبا زمنية طويلة كانت عبادة الاوثان الديانة الوحيدة العامة على الارض ضاربة بجذورها بين ابناء المجتمع البشري وازدادت ترسخا في مجتمعات الضلال، وقد يستثنى افراد قلائل من ابناء المجتمع البشري كانوا على دين نوح (عليه السلام).

بابل وكنعان ومصر وبلاد فارس كانت حواضر عظيمة تعج بحركة العمران والزراعة، وكان المجتمع فيها مجتمعاً متمدناً بحسب القيم المدنية لذلك الوقت، وعلى خلاف ذلك تمتد الصحراء البعيدة حيث شضف العيش وصعوبة الحياة وقساوة البراري والقفار التي تركت اثارها واضحة في خشونة اهلها، حيث كان اعتمادهم الاساس على سواعدهم في حماية انفسهم من اخطار

[26] الأنبياء: 69 - 71

البشر والحيوانات المفترسة، اقوام لم يعرفوا الاستقرار في ارض الا ما ندر، يجولون في الصحراء طلبا للماء والكلأ لري مواشيهم وعلفها.

تلك الجهة من الارض التي ربما لم يدر في خلد اهلها يوما ان رمال صحرائهم القاحلة وصخور جبالهم الجرداء ستتبرك يوما بان يحل فيها حامل لواء التوحيد وريث دعوة نوح (عليه السلام)، ولكن ابى الله الا ان يروي تلك الارض من قطر غيث النبوة لتكون بعد قرون من الزمن مشعلاً تنطلق منه دعوة التوحيد لتملأ الارض على يد حفيده المصطفى (صلى الله عليه واله).

كان للنبي ابراهيم (عليه السلام) زوجة اسمها هاجر (عليها السلام)، وما ادراك ما هاجر ،هاجر ربيبة البلاط المصري، وللإنسان ان يتخيل مالذي تكون عليه ربيبات القصور اللائي خضن في رخاء العيش وطبيعة الحياة المادية الهانئة حيث المال والثروة والسلطان، بعد رحلة النبي ابراهيم (عليه السلام) الى مصر للدعوة الى الله تعالى اهدى ملك مصر هاجر لتكون جارية لسارة زوج النبي ابراهيم (عليه السلام) فعادت مع سيدتها الجديدة الى بلاد الكنعانيين وغادرت حياة القصور الفارهة، هاجر من النساء اللائي اثبتن للدنيا ان رشحات النور تجد محلها في القلوب الطاهرة، فكانت نعم الامة لسيدتها سارة التي لم ترزق بولد للنبي ابراهيم (عليه السلام) فوهبتها له عسى الله ان يمن عليه بالذرية فوهبه الله اسماعيل (عليه السلام)[27].

شاء الله ان يبتلي النبي ابراهيم (عليه السلام) مرة اخرى ويبتلي معه هاجر (عليها السلام) فأمره بالسير الى الارض المقدسة، فجاء جبريل (عليه السلام) رفيقا في الدرب الذي سيقطعه عبر الفيافي والقفار، وكان كلما وصل النبي ابراهيم (عليه السلام) الى بلدة يسال ان كان هذا المكان المقصود فيجيبه بالنفي، واستمر ركب المباركين في الارض يطوي الارض حتى وصل الى موضع اخبرهم جبريل فيه ان هذا هو المكان المقصود، انها مكة، كل الذي نعلمه ان النبي ابراهيم (عليه السلام) كان نبيا وكان ممن اصطفاهم الله تعالى فمثله لا يسعنا نحن البشر العاديين ان نشخص كيف تلقى مسالة نزول ركبه في هذا المكان القفر، ولكن الذي نجزم به ولا شك لنا فيه انه كان مسلما تسليما، واما هاجر (عليها السلام) فكأن الايام التي عاشتها معه قد سرى فيها التسليم المطلق الى قلبها من قلب النبي ابراهيم (عليه السلام) العامر بالتسليم لامر الله[28].

مكة واد قاحل ليس فيه منبع للماء تحيطه جبال صخرية جرداء، هواؤها حار لاهب في الصيف، اين هذا من قصور الشام او اعتدال الجو في بابل او كنعان، ولكن حيث اراد الله لم يسع شيخ الأنبياء الا التسليم لإرادته، لتبدا مرحلة اخرى من مراحل الابتلاء على هذه البقعة المقدسة من الارض.

لم يقف الامر عند هذه الحال، فلم تمض سوى ايام قلائل حتى اخبر النبي ابراهيم (عليه السلام) هاجر انه سيعود الى ارض كنعان ـ بلاد الشام ـ الى زوجه سارة، فسالته الى من يكل امرهم، وهي غريبة في هذه الارض القفر القاحلة، التي لا يظهر على مد البصر في جميع اطرافها اي

---

[27] انظر بحار الانوار وقصص الأنبياء للجزائري وابن كثير وتاريخ الطبري الجزء الاول/ الفصل المتعلق بالنبي ابراهيم (عليه السلام) واصطحابه سارة الى مصر واهداء ملك مصر السيدة هاجر للسيدة سارة.

[28] انظر بحار الانوار وقصص الأنبياء للجزائري وابن كثير وتاريخ الطبري الجزء الاول/ الفصول المتعلقة بارسال هاجر واسماعيل الى مكة وبنائها بعد ذلك، وانظر الكافي للكليني الجزء الرابع كتاب الحج

معنى من معان الحياة فلا زرع ولا عشب ولا رعاة ولا اي شيء اخر يوحي بان هناك قابلية لإدامة الحياة في هذه المنطقة، فاخبرها انه اوكل امرهم الى الله تعالى وان حط رحالهم هنا بأمر منه وان الله هو الذي امره بالعودة الى الشام، فسلمت امرها الى الله تعالى ورضيت بقضائه.

لا يدري من يريد ان يكتب عن هذا الامر أيعجب من النبي ابراهيم (عليه السلام) الذي سيفارق وليدا صغيرا كان ينتظره عقودا من الزمن، ام من هاجر (عليها السلام) ربيبة القصور التي تركت في ارض قفر ليس فيها اي مظهر من مظاهر الحياة.

ضربت السيدة هاجر (عليها السلام) اروع الصور طاعة الله تعالى والتسليم لأمره، والسير على نهج النبي ابراهيم (عليه السلام)، فأفاضت بصبرها وتسليمها على المجتمع البشري طاقة روحية كانت سبباً في جذب القبائل المحيطة بمكة الى عبادة الله والانابة اليه، فلم يمض من الزمن الا اليسير بعد مغادرة النبي ابراهيم (عليه السلام) مكة حتى جعل الله لهاجر وابنها (عليهما السلام) كرامة ابدية شاخصة عبر الاجيال وعلى مرور القرون والازمان، فانبع الله تحت قدمي صغيرها اطهر ينبوع ماء على الارض ـ زمزم ـ تلك المياه التي اكتسبت البركة الابدية حيث كانت اقدام اسماعيل (عليه السلام)[29] اول جسم بشري تتشرف به، وتلاها كفي هاجر، ولعلها امتزجت بدموع الشكر التي انهمرت من عينيها لتقديم فرض الشكر للرب الكريم على فضله ونعمته ومننه، كان هذا النبع المبارك استجابة من الله لدعاء عبده النبي ابراهيم (عليه السلام) الذي سلم امره لربه تسليما، ولست ادري هل كان يتلفت الى ولده وزوجه وهو يغادر مكة الى الشام وقد تركهم بلا ماء ولا طعام والا انيس ولم يترك عندهم الا امله بالله وثقته به.

﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾[30]

ومضت الايام وعرف المحيطون بمكة والقوافل التي كانت لا تمر بها انبثاق زمزم فأصبحت ممرا للقوافل، وطلب الناس الاذن بالسكن الى قرب ال ابراهيم (عليه السلام) حول مكة فأذنوا لهم، لقد كان ظهور زمزم ايذانا للناس ان المباركين في الارض قد حلوا بين ظهرانيهم، واول علامة على قدسيتهم ان الله تعالى بث الحياة في الارض الجرداء القاحلة بمجرد ان حلوا في تلك البقعة، وهكذا اصبح المباركون في الارض بعد البلاء الشديد الذي اجتازوه بصبر وتسليم ورضا بما يريده الله مثالا يحتذي به كل من اطلع على امرهم ووقف على مالهم من منزلة عند رب السموات والارض، وليمنحوا درسا لكل من على الارض من البشر ان من اثار التسليم لإرادة الله تعالى السعة في الرزق والفرج بعد الكرب والمقام السامي في القلوب ورفعة الذكر ورضوان عند الله اكبر[31].

اسماعيل الذبيح

[29] انظر قصة زمزم في المصادر السابق

[30] ابراهيم :37

[31] انظر بحار الانوار قصص الأنبياء للجزائري وابن كثير تاريخ الطبري الجزء الاول/ الفصل المختص باسماعيل (عليه السلام)

ولم ينته ابتلاء ال ابراهيم (عليه السلام) عند هذا الحد، فلم تمض السنون حتى امر الله تعالى النبي ابراهيم واسماعيل (عليهما السلام) ان يرفعا القواعد من البيت

(وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا ۖ إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ، رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا ۖ إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ)[32]

ثم امر الله النبي ابراهيم (عليه السلام) ان يذبح ولده في قصة عند قراءتها تقشعر الابدان رهبة من الأمر الالهي واعظاماً لطاعة النبي ابراهيم واسماعيل (عليهما السلام) لأمر الله تعالى وانقيادهما له والتسليم المطلق لإرادته

﴿ رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ ، فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ ، فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ ، فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ ، وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ ، قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ، إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ﴾[33]

ولم يقف التسليم عند هذا الحد حتى طلب الولد الى ابيه ان يشحذ السكين جيدا كي لا يطول بلاؤه وان يغطي وجهه حين الذبح حتى لا يرى الاب تعابير وجه ولده الذبيح فتؤثر فيه، وان يخلع عنه قميصه ويرسله لأمه بعد ذبحه كي يهدأ روعها كلما شمت ريحه وان يبعد القميص قبل ذبحه لئلا يسيل الدم على قميصه فتحزن امه عند رؤيته، ثم طلب الى ابيه ان يشد وثاقه بالحبل كي لا يضطرب جسده عند الذبح فيتألم ابوه. انها اعظم قصص التسليم لأمر الله مزينة ببر الوالدين فلم ينس اسماعيل ان يقترح على والده المفجوع بكل ما يكون فيه بارا بوالديه[34].

انه حديث ال ابراهيم (عليه السلام) التي منحت الوجود الانساني طاقة جبارة تقود بني البشر الى الله الواحد الاحد، القصة التي اذابت الاكباد لتنفذ بكل معانيها السامية الى قلوب سكنة الصحاري لتطوعها لقبول الحق، كما طوعت قصة نار النمرود قلوب اهل بابل وكنعان.

ان ابتلاء ال ابراهيم (عليه السلام) جاء ليبين للناس عظمة هؤلاء المباركين في الارض وليصدح بها حديثاً تتدارسه الاجيال تلو الاجيال في التسليم والطاعة واعلاء كلمة الله.

من الابتلاءات المتعددة التي تعرض لها ال ابراهيم (عليه السلام) نستخلص العديد من العبر منها:

1. على الرغم من شيوع عبادة الاصنام في المجتمع البابلي الا ان ذلك لم يكن سببا لإهلاك المجتمع البشري برمته كما حصل في عهد نوح (عليه السلام)، وهذا يكشف عن ان السنة الالهية النابعة من الرحمة المطلقة قائمة على الاخذ بيد الانسان ما دامت له الاهلية على ان يأوب الى طريق الحق وان كان ذلك عبر الاجيال المتعاقبة وهو المعنى الذي سبقت الاشارة اليه في قصة نوح (عليه السلام).

[32] البقرة: 127 - 128
[33] الصافات: الايات 100 - 106
[34] انظر المصادر المشار اليها سابقا في قصة ذبح اسماعيل (عليه السلام)

2. ان المجتمع البشري في عهد النبي ابراهيم (عليه السلام) على الرغم من كونه قد وقع تحت تأثير الكهنة وسلطان الجور الا انه كان الى درجة ما مستعدا لقبول الحقيقة والايمان بها، فكانت المعجزة الالهية في نجاة النبي ابراهيم (عليه السلام) من النار سببا في تحول فكري وعقائدي واسع في الوسط الاجتماعي مكن النبي ابراهيم (عليه السلام) من المضي في دعوته بحيث عمت دعوته الامبراطورية البابلية، وتوجه بالدعوة الى التوحيد نحو مصر التي كانت تعتبر الحاضرة الامبراطورية الثانية في العالم بعد بابل، وكان الصراع المباشر بين النبي ابراهيم (عليه السلام) والكهنة والسلاطين، ومناظراته والمعجزات التي ظهرت على يديه دفعت اصحاب العروش الى الخضوع لحجة النبي ابراهيم (عليه السلام) فخلوا بينه وبين الناس ليدعوهم الى الله، وقد حظى النبي ابراهيم (عليه السلام) بمكانة عظيمة في النفوس فاصبح حاكما بلا دولة وامتدت سلطته الروحية في ارجاء المعمورة.
3. صبر النبي ابراهيم (عليه السلام) وآله على الوان البلاء التي تعرضوا لها، فمن محاولة حرقه في نار مهولة ثم ابتلائه (عليه السلام) بحاكم مصر وبعدها فراقه لإسماعيل وهاجر (عليهما السلام) ثم التسليم لذبح اسماعيل (عليه السلام) كان سببا لفيوض الآثار الروحية على المجتمع البشري، الذي وجد نفسه امام التضحيات العظيمة لآل ابراهيم (عليه السلام) مدفوعا نحو القيم الأخلاقية والروحية الفاضلة التي حملها اليهم المباركون في الارض، خاصة وان القيم التي جاء بها النبي ابراهيم (عليه السلام) وبنوه من شانها النهوض بالواقع الانساني نحو درجات الكمال، ففي الوقت الذي كان كهنة المعابد والسلطات الغاشمة يستنزفون طاقات الانسان ويهدرون كرامته ويستغلون جهله، كان ال ابراهيم (عليه السلام) يضربون اروع الامثلة في الفناء المطلق في الله تعالى والتسليم لإرادته، وبث العلم وحفظ كرامة الانسان وتسخير طاقاتهم لخدمة المجتمع البشري.
4. كان المجتمع في العهد السابق على عهد النبي ابراهيم (عليه السلام) وفي ايامه قد ابتلي بالحروب والصراعات بين الدول والقبائل التي حكمت الارض، وفي خضم تلك الاحداث المريرة كان ال ابراهيم (عليه السلام) منارا للأمل وطريقا للانعتاق تركوا اثرا مباشرا في الشعوب المستضعفة التي كانت تتطلع للسلام والعدل والحرية، فالابتلاءات التي تعرضت لها المجتمعات البشرية آنذاك في جانبيها المادي والفكري سبب في اعادة بناء الشخصية الانسانية في تلك الحقبة من تاريخ البشرية، فماديا عانت المجتمعات البشرية من تسلط الحكام الجائرين ومصادرة حرياتهم وسفك الدماء والحط من الكرامة، وروحيا اتسعت ساحة الصراع الفكري بين الدعوة الى التوحيد واقامة شريعة الله على الارض التي جاء بها النبي ابراهيم (عليه السلام) وبين ما يدعو اليه كهنة المعابد من عبادة الماديات كالأوثان والكواكب والنجوم والشمس والقمر، هذه الابتلاءات التي تعرض لها المجتمع البشري كانت سببا في التمهيد لظهور مجتمعات التوحيد في الاجيال التي اعقبت الاجيال التي عاصرت المحنة.

يوسف (عليه السلام) وابتلاء الذات والامة والمجتمع البشري

منذ دعوة النبي ابراهيم (عليه السلام) الى التوحيد والى يومنا هذا لم يخبُ نشاط الموحدين على الارض، وعلى وجه الكرة الارضية عاش مجتمع الموحدين ومجتمع المشركين جنبا الى جنب مع ادامة الصراع الفكري بل والعسكري بين الفريقين على مدى التاريخ.

وفي تلك الحقبة الزمنية كانت ذرية النبي ابراهيم (عليه السلام) الرمز الواضح في معادلة الصراع الفكري بين التوحيد والوثنية وكانوا اعلام الدعوة الى القيم الروحية والأخلاقية وبسط العدل ونبذ الظلم.

وقد امتد نشاط ذرية النبي ابراهيم (عليه السلام) في الفترة بين عهده (عليه السلام) وحتى عهد حفيده يعقوب، ففي جزيرة العرب انتشر بنو اسماعيل (عليه السلام)، وفي العراق وبلاد الشام انتشر بنو اسحق (عليه السلام).

اما مصر فان اثر دعوة النبي ابراهيم (عليه السلام) في فترة هجرته الى مصر ولدت مجتمعا موحدا محدودا ضعيفا عرفوا بعباد الاله اتون قبال الوثنيين الذي كانوا يعبدون آمون وكانت الوثنية هي الدين الرسمي للدولة المصرية.

في تلك الحقبة الزمنية من تاريخ البشرية ولد للنبي يعقوب (عليه السلام) اثنا عشر ولدا، كان احبهم اليه واقربهم الى نفسه النبي يوسف (عليه السلام) واخوه بنيامين.

اثار تقريب النبي يعقوب لولده يوسف (عليهما السلام) حفيظة اخوته العشرة، الذين دبت في قلوبهم مشاعر الحسد الشديد الذي اثاره شعورهم ان مستقبل زعامة العائلة سيكون ليوسف (عليه السلام) وأخيه بنيامين.

تحول الحسد في نفوسهم الى حقد دفين على يوسف (عليه السلام) نزع من قلوبهم قيم الانسانية فضلا عن قيم الدين التي نشأوا عليها في بيت النبي يعقوب (عليه السلام) وقيم الاخوة التي يهتم بها كثيرا الوسط الاجتماعي البدوي الذي نشأوا فيه.

(إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ ، قَالَ يَا بُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَىٰ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا ۖ إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ ، وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَىٰ أَبَوَيْكَ مِنْ قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ، لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِلسَّائِلِينَ ، إِذْ قَالُوا لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ)[35]

في هذه المرحلة الحساسة من تاريخ ال يعقوب (عليه السلام) من الضروري ان نستقرأ الحدث لنقف على حركة الابتلاء التي رسمت تاريخ المنطقة في تلك المرحلة الزمنية الحساسة، ولنقف عند الاعداد الالهي للظروف التي ترسم مستقبل الافراد والامم والمجتمع البشري برمته كما اشار الى ذلك قوله تعالى:

[35] يوسف: الايات 4 - 8

﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ لِكَيْ لَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾[36]

اذا القينا نظرة على مجتمع التوحيد نرى ان نشاط الموحدين في تلك الفترة كان منبثاً في جزيرة العرب وارض بابل وكنعان، اما مصر فكانت تعيش ضعفا شديدا في الدعوة الى الله تعالى عند المقايسة مع القدرات المتوفر في ارض مصر اقتصاديا وعسكريا وثقافيا وبشريا، اذ الحضارة المصرية آنذاك في اوج مجدها وتعد الاولى على الصعيد الثقافي والعسكري والاداري ويمتد نفوذها الى مناطق واسعة في اسيا وافريقيا، وبلاد بهذا المستوى من التطور الحضاري من الضروري ان يتصف من يرسل اليها للدعوة الى الله ان تتحقق فيه صفات وخصائص تجعله مقبولا عند الامة التي يراد ارساله اليها كي ينجح في مهمته التي تتعاطى مع روح الانسان وفكره وعقيدته وايمانه المتجذر عبر الاجيال.

فمثل هذا الرسول من الضروري ان يتمتع بسمعة طيبة وان تكون الفوارق الثقافية والبيئية والانتمائية متلاشية بينه وبين المجتمع الذي يراد له العمل فيه للدعوة الى الله.

فاختيار الله تعالى ليوسف (عليه السلام) للنهوض بهذه المهمة سببا في افاضة خصال جسدية فضلا عن الملكات الروحية التي يتحلى بها الأنبياء (عليهم السلام)، فوهبه الله تعالى وسامة تجعل قلب الناظر اليه متيما به، واما على صعيد المقتضى الاجتماعي وقبول المصريين بيوسف (عليه السلام) كمصلح ونبي وداع الى الله، فكان لابد ليوسف (عليه السلام) ان يترعرع بين ابناء ذلك المجتمع الذي كان يعتبر نفسه اسمى وارقى المجتمعات البشرية، ولكي يكون لشخصية يوسف (عليه السلام) اثرا مهما كان من المهم ان يعيش حياته بين علية القوم كي يكون اسمه وخصائصه وكمالاته وصفاته معروفة مشهورة ويكون له في قلوب ابناء المجتمع المصري مكانة سامية ومنزلة عظيمة لتتحقق الغاية من بعثه الى ذلك المجتمع. أي ان المنهج الالهي في الدعوة الى التوحيد قائمة على رعاية حال المجتمع المرسل اليها المبلغ عن الله والمخبر عنه.

كان من الضروري بعد ان يبلغ يوسف (عليه السلام) العمر الذي ارادته السماء ليغادر ارض الشام الى حيث تقتضي الارادة الالهية ان يصل يوسف (عليه السلام) بطريقة ما الى مصر والي قصر وزيرها الاول.

السؤال الذي يرد هنا هل ان وصول يوسف (عليه السلام) الى مصر متوقف على حسد اخوته له؟ ام ان هناك وسائل اخرى يمكن من خلالها ان يصل يوسف (عليه السلام) الى تلك البلاد؟

للجواب على هذا التساؤل نقول انه ليس هناك توقف في وصول يوسف (عليه السلام) الى مصر على حسد اخوته وحقدهم عليه، فانه كان يمكن ان يضيع يوسف (عليه السلام) من بين اخوته باي طريقة عندما كان معهم في الصحراء، ولكنه ابتلاء ابتلى الله تعالى به ابناء يعقوب (عليه السلام) ليثبت لهم على الصعيد الشخصي انهم فشلوا في الابتلاء وان المستقبل بيد الله تعالى يصرفه كيف يشاء.

واما من جانب ابناء يعقوب فان الله تعالى اراد ان يجعل من بني اسرائيل امة موحدة تحمل راية التوحيد في ارض مصر، وبعبارة اخرى يمكن القول ان الارادة الالهية اقتضت ان يكون اسماعيل وذريته الفئة التي تنهض بأعباء الدعوة الى الله في جزيرة العرب وان يكون لبني اسرائيل دور اقامة مجتمع التوحيد في مصر بعد ان قام بنو اسحق بالدعوة الى الله في بلاد الشام، وليمهد الله تعالى بحضور بني اسرائيل في مصر ان يهيأ الاسباب لان ينضج تفكير بني اسرائيل ليكونوا مؤهلين لإقامة دولة وسلطان بعد ان كانوا في عهد النبي ابراهيم (عليه السلام) واسحق ويعقوب (عليهما السلام) يسكنون البادية، ذلك لان إدارة البلاد يحتاج الى فن الإدارة وتهيئة الجيوش وإدارة الاقتصاد، وهو ما حصل بعد ان خرج بهم يوشع (عليه السلام) من التيه.

[36] الحديد: الايات 22 - 23

فهكذا نجد ان التقدير الالهي اقتضى ان يفارق يوسف (عليه السلام) اباه، ويترعرع في ارض مصر ليحبه اهلها لما وهبه الله من صفات وملكات تجعل محبته تسري في القلوب سريان الدم في العروق، ويمكن الله له في الارض فيصبح الوزير الاعظم لملك مصر والمتحكم بالاقتصاد المصري بل باقتصاديات العالم المحيط بمصر بسبب القحط الذي اصاب المجتمع البشري سبع سنين متواصلة، ومن ثم يمهد الله له نشر دعوة التوحيد في ربوع مصر بعد ان اسر حبه فؤاد ملك مصر الذي امن بدعوة التوحيد وكفر بعبادة الاوثان وامر بتدمير تماثيل آمون واعتبر الوثنية جرما يحاسب عليه القانون ودعى الى عبادة الاله الواحد (اتون) وابدل اسمه من امنحوتب الرابع الى اخناتون اذ ان الاسم الاول فيه ذكر لآمون اما الاسم الذي اختاره فيعني عبد الاله اتون، واتون هو الله بلغة المصريين القديمة. وهكذا ساد التوحيد في ارض مصر بعد ان كانت احدى امبراطوريات الشرك[37].

وهكذا مكن الله ليوسف (عليه السلام) بسط التوحيد في ارض مصر التي حل التوحيد في ارضها عند هجرة ابراهيم (عليه السلام) اليها، ثم ادامه بعد يوسف (عليه السلام) بنو اسرائيل الذين انتقلوا من بلاد الشام الى مصر عندما كان يوسف (عليه السلام) عزيزا لمصر.

لم تلبث هيمنة الموحدين في مصر طويلا فبعد وفاة الملك اخناتون، اعتلى العرش زوج ابنته عنخ توت آمون الذي كان يعتقد بعبادة الاوثان فأعاد عبادة الاصنام ومعابد آمون واعاد للكهنة سطوتهم وللمعابد مكاسبها والاراضي التي كانوا يملكونها قبل ان يصادرها منهم اخناتون، وشن المصريون حربا شعواء على التوحيد واضطهدوا الموحدين، ولكن مشعل التوحيد في ارض مصر بقي وهاجا في ظل وجود بني اسرائيل الذين كانت لهم مكانة عظيمة في نفوس المصريين الذين عشقوا يوسف (عليه السلام).

والخلاصة التي لابد من التأكيد عليها ان رحلة يوسف (عليه السلام) لمصر لم تضف لكمالاته شيئا فهو الانسان الكامل الذي عبر الله تعالى عنه انه من العباد المخلصين وان الله تعالى اتاه العلم، فلم تضف مصر له شيئا، ولكن جملة المصائب والمصاعب التي تعرض لها صلوات الله عليه كانت لإعداد المصريين لقبول دعوة التوحيد، ولإعداد الارضية المناسبة لانتقال بني اسرائيل الى مصر تمهيدا لنقل ثقافتهم من البداوة الى ثقافة الامم المتحضرة ليتعلموا فن إدارة الدولة وكيفية بنائها وادامة وجودها.

اما على الصعيد الشخصي فان بني يعقوب (عليه السلام) اعادوا الى الاذهان قصة هابيل وقابيل، فعلى الرغم من ان العائلة كانت عائلة نبوية تعيش في كنف يعقوب (عليه السلام) الا ان الحسد عمل عمله في قلوب اخوة يوسف (عليه السلام) حتى دفعهم الى السعي لقتله لإبعاده عن طريقهم في خلافة ابيهم، وقد خططوا لذلك وراودوا عنه يعقوب (عليه السلام) واخذوا يوسف (عليه السلام) معهم الى الصحراء وباشروا القضاء عليه الا ان التقدير الالهي منعهم من ارتكاب تلك الجريمة فقرروا القاؤه في غيابة الجب، وبعد ذلك باعوه كعبد ابق، وعادوا الى ابيهم عشاء يبكون مدعين ان الذئب اكله.

(اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ ، قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ ، أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ، قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ ، قَالُوا لَئِنْ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذًا لَخَاسِرُونَ ، فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَأَجْمَعُوا أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ ۚ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ، وَجَاءُوا أَبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ ، قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ ۖ وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ ، وَجَاءُوا عَلَىٰ قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ ۚ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ

[37] ول ديورانت قصة الحضارة الجزء المتعلق بالحضارة المصرية

فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ، وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُ ۖ قَالَ يَا بُشْرَىٰ هَٰذَا غُلَامٌ ۚ وَأَسَرُّوهُ بِضَاعَةً ۚ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ، وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ)[38]

وهنا نجد ان اخوة يوسف (عليه السلام) ارتكبوا العديد من الاخطاء المنافية للقيم السماوية والارضية على الرغم من كونهم ابناء ثلاثة من الأنبياء في سلسلة واحد يعقوب واسحق وابراهيم (عليهم السلام)، فهم خططوا وباشروا في قتل نفس بريئة لم ترتكب جرما ولا جريرة، وما دعاهم الى ذلك الا الحسد فهم بهذا شابهوا قابيل في فعله، وقطعوا الرحم بإساءاتهم المتعددة الى أخيهم حيث ضربوه وارعبوه واذوه ثم القوه في غيابة الجب امعانا في اظهار حقدهم عليه وبغضهم له وزادوا على ذلك ان باعوه مدعين انه عبد رق ابق وهو ابن الأنبياء العظام، وبأفعالهم تلك ادخلوا الحزن الشديد على قلب ابيهم (عليه السلام) فكان ذلك من اعظم العقوق.
اما يوسف (عليه السلام) فبعد ان مكنه الله له في الارض سعى الى نشر عبادة التوحيد بعد ان اصبح المجتمع المصري مستعدا لقبول الدعوة لتأثره بشخصية يوسف (عليه السلام) من حيث كمالاته الذاتية ونجاحه في انقاذ المصريين من مخاطر المجاعة التي تسبب بها الجفاف

(وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَىٰ أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا ۚ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ ۚ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ، وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ، وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ۚ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ ۖ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ ۖ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ، وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ ۖ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَىٰ بُرْهَانَ رَبِّهِ ۚ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ ۚ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ ، وَاسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِنْ دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَى الْبَابِ ۚ قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ، قَالَ هِيَ رَاوَدَتْنِي عَنْ نَفْسِي ۚ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ أَهْلِهَا إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ، فَلَمَّا رَأَىٰ قَمِيصَهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ ۖ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيم ، يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا ۚ وَاسْتَغْفِرِي لِذَنْبِكِ ۖ إِنَّكِ كُنْتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ ، وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ ۖ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا ۖ إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ، فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ ۖ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ، قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ ۖ وَلَقَدْ رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ ۖ وَلَئِنْ لَمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِنَ الصَّاغِرِينَ ، ثُمَّ بَدَا لَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا الْآيَاتِ لَيَسْجُنُنَّهُ حَتَّىٰ حِينٍ ، وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانِ ۖ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا ۖ وَقَالَ الْآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ ۖ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ ۖ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ، قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا ۚ ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي ۚ إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ، وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ ۚ مَا كَانَ لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ۚ ذَٰلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ، يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ، مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ ۚ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا

[38] يوسف : الايات 10 - 20

إِيَّاهُ ۚ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ، يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْرًا ۖ وَأَمَّا الْآخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْ رَأْسِهِ ۚ قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ ، وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِنْهُمَا اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ فَأَنْسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ ، وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنْبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ ۖ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ إِنْ كُنْتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ ، قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ ۖ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ بِعَالِمِينَ ، وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أُنَبِّئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ ، يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنْبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ لَعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ ، يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنْبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ لَعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ ، ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تُحْصِنُونَ ، ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ، وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ ۖ فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ ارْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ۚ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ، قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدْتُنَّ يُوسُفَ عَنْ نَفْسِهِ ۚ قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ ۚ قَالَتِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ، ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ ، وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي ۚ إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي ۚ إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ ، وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي ۖ فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ، قَالَ اجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَائِنِ الْأَرْضِ ۖ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ، وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ ۚ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ ۖ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ، وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ)[39]

وبالإلغاء الرسمي لعبادة الاوثان واعتناق ملك مصر وشعبها التوحيد اصبحت مصر اول دولة تعلن التوحيد دينا رسميا فأصبحت بذلك اول دولة تجمع بين احكام السماء والتطور الفني والثقافي والمادي للمجتمع البشري[40].

واما مع ذويه فان يوسف (عليه السلام) عفا عن اخوته وآوى اليه ابويه، واسكن ذرية يعقوب (عليه السلام) ارض مصر، فكان يوسف (عليه السلام) مطيعا لربه وصولا لرحمه بارا بأبويه

(وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا ۖ وَقَالَ يَا أَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا ۖ وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي ۚ إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ ۚ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ، رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ ۚ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ۖ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ)[41]

ومما تقدم من ابتلاءات يوسف (عليه السلام) يمكن ان نستفيد الامور الاتية:

1. ان المجتمع البشري كان مبتلى على الصعيدين الفكري والمادي، فكريا كان مبتلى بالصراع بين التوحيد والشرك، وماديا كان مبتلى بجور الحكام وظلم الرعية لبعضها ومختلف انواع المصاعب الحياتية.

[39] يوسف: 21 - 57

[40] انظر ول ديورانت قصة الحضارة الشرق الادنى الفصل المختص بالحضارة المصرية

[41] يوسف: الايات 100 - 101، وكذلك تنظر المصادر المشار اليها في الفصول المتعلقة بقصة يوسف (عليه السلام)

2. ان مجتمع التوحيد منذ عصر ابراهيم (عليه السلام) والحقب الزمنية اللاحقة اصبحت له منعة وقوة عجزت معها معابد الاوثان وسلطات الجور من القضاء عليه واحد الاسباب يعود الى عمق الارتباط بين الشعوب وال ابراهيم (عليه السلام).
3. ان ساحة التوحيد كانت منتشرة في البلاد ذات الطابع الحضاري آنذاك كبابل وكنعان، ولها حضور بسيط في بلاد الفراعنة. مضافا الى جزيرة العرب التي لم تكن قد بلغت مستوى حضارياً معتدا به في تلك الحقبة الزمنية.
4. ان الله تعالى شاء ان يمهد لنشر التوحيد في بلاد مصر، فارسل اليهم يوسف (عليه السلام) ليترعرع بينهم منذ نعومة اظفاره وبدلا من ان تتمكن ثقافة الشرك والثقافة المصرية من التأثير فيه اصبح هو الشخصية المؤثرة في المجتمع وبلاط عزيز مصر بما وهبه الله تعالى من العلوم، ثم ليكون عنوانا بارزا للمجتمع المصري على مختلف طبقاته الاجتماعية لما شاع عنه من العفة والاستقامة والعلم خاصة بعدما رافق اسباب واحداث السجن، ومن ثم تفسير رؤيا ملك مصر، وتوجها بإدارة الاقتصاد المصري ايام السنوات العجاف، فاصبح رمزا كبيراً في عالم الإدارة والاقتصاد وهكذا اصبح ينظر الى يوسف (عليه السلام) بانه الاول في القيم الأخلاقية السامية والاول في العلم والاول في الإدارة فاصبح الوزير الاول لملك مصر، والراعي الاول لنشر ديانة التوحيد التي اصبحت الدين الرسمي للدولة وهذا يعني ان التشريعات والقوانين المصرية في عهد يوسف (عليه السلام) كانت قوانين الشريعة الابراهيمية.
5. ان حديث يوسف (عليه السلام) واخوته يكشف عن ان الانسان لن ينال الا ما كتبه الله تعالى له، وان السير في نهج طاعة الله هو الكفيل بتحقيق سعادة الفرد والمجتمع ووصول الفرد الى امانيه وطموحاته، فان اخوة يوسف (عليه السلام) سعوا للتقرب الى ابيهم بإبعاد يوسف (عليه السلام) عنه فنتج عن ذلك انهم اصبحوا عنه مبعدين وسعوا لإذلال يوسف (عليه السلام) ببيعه كعبد رقيق فمن الله تعالى عليه بأعظم مما كانوا يتصورون، اذ حسدوه على قربه من ابيه فازداد ابوه حبا به، وسعوا لإبعاده عن رئاسة عائلة يعقوب (عليه السلام) في المستقبل التي لم يكن يدور في خلدهم شيء اوسع منها بسبب واقعهم الاجتماعي، فوهبه الله إدارة ملك مصر فاصبح الحاكم المطلق فيها، وهي من اعظم امبراطوريات ذلك الزمان، واما يوسف العفيف العالم العبد المُخلص من الله فان الله تعالى اجتباه وجمع له الملك والنبوة وهنا يظهر دور النجاح في الاختبار في بعديه المادي والمعنوي، كما تظهر اثار الاخفاق في الاختبار السلبية على الفرد والامة والمجتمع البشري، فلو تمكن اخوة يوسف (عليه السلام) من قتله لما تحقق لبني اسرائيل بعد عقود من الزمن ان يتحولوا من مجتمع بدوي الى مجتمع متحضر، ولم يكتب لهم ان يحملوا رسالة التوحيد في قبال امم الشرك التي حكمت حواضر الدنيا آنذاك، ولم يكتب للوثنية ان يهتز عرشها على ارض مصر في تلك الحقبة الزمنية.

ابتلاء ايوب (عليه السلام)

من قصص الابتلاء التي نص عليها القران الكريم قصة ايوب (عليه السلام) الذي ابتلى ابتلاءاً ماديا في كل ما يمكن ان يبتلى به الانسان، اذ ابتلاه الله تعالى بذهاب المال ووفاة الذرية، ثم ابتلاه بمختلف الامراض الجسدية حتى اقعد تماما، واضطرت زوجه الى الخدمة في البيوت لتوفير لقمة العيش لهما، وضرب كلا من ايوب (عليه السلام) وزوجه التي روي انها بنت يوسف (عليه السلام) اروع امثلة الصبر والتسليم والرضا بقضاء الله وقدره.
لم يكن ابتلاء ايوب (عليه السلام) وزوجه لمعصية منهما، ومما لا ينسى ان الأنبياء (عليهم السلام) من كمل الموجودين فلا يضيف لهما العمل الدنيوي كمالاً اذ هم يعملون في هذه الحياة الدنيا بمقتضى كمالهم وهو ما اشار اليه نبينا (صلى الله عليه واله) في قوله " افلا اكون عبدا

شكورا"، فابتلاء ايوب (عليه السلام) كان مثالا لابتلاء الصالحين كي تهتدي بذلك الامم، ويعلم الناس ان البلاء لا يصيب الظالمين فقط بل يمكن ان يصيب الصالحين ولا ينقص ذلك من كمالهم وقدرهم ومنزلتهم، بل ان هناك مقامات ودرجات لا يصلها الانسان الا اذا تعرض الى بلاء معين، فزوج ايوب (عليه السلام) بنت النبي يوسف (عليه السلام) الذي كان يوما ملكا لمصر ومن الطبيعي ان اقربائها كانوا موجودين ولعل بعد المسافة بينهم جعلتهم يجهلون حالها وحال زوجها اذ كان ايوب (عليه السلام) يعيش في بلاد الشام بينما كان بنو يعقوب (عليه السلام) يعيشون في مصر، فهذه السيدة الجليلة ربيبة العز والدلال ربيبة بيت النبوة والملك والتي عندما تزوجت ايوب (عليه السلام) كان على مستوى عال من الثراء وكان شديد السخاء اذ لم يتناول الطعام يوما وحده بل كانت مائدته عامرة بالضيوف من الفقراء وابناء السبيل وغيرهم، وكان موضع قضاء حوائج المحتاجين، وانجبت له بنين وبنات، فلما حل البلاء لم تجد بنت النبوة والملك وزوج الكريم السخي الا العمل في البيوت بإزاء اجر الطعام الذي تسد به رمقها ورمق زوجها المبتلى وهي التي كان لها خدم وحشم وبيتها موضع حاجات المعوزين، ولكنها صبرت على كل ما الم بها وبزوجها ولم تجزع ولم تنطق بما يتنافى مع مقامها وكمالها، فأثابها الله جزاء المحسنين في الدنيا والاخرة.

فمن هنا يتبين ان الدنيا دار بلاء للصالحين والعاصين، غير ان اثار البلاء وطرقه تختلف، فبلاء العصاة للعقوبة والتأديب وربما الاستدراج اذا كان البلاء مما تهواه النفوس، وبلاء الصالحين للرفعة وعلو المقام وبيان اثار التسليم لأمر الله والرضا بقضائه والتوكل عليه.

فأيوب (عليه السلام) بعد الصبر الطويل الذي جابه به الوان الابتلاءات التي مر بها، مَنَّ الله تعالى عليه بان اعاد اليه اهله ومثلهم معهم وشفاه من جميع الامراض والاسقام واصلح له زوجه حتى عادت الى سن الشباب فعاد اعظم مما كان قبل الابتلاء.

والدرس في قصة ايوب (عليه السلام) يبين ان اثار الصبر على الامتحان الالهي تترتب في الدنيا والاخرة، فقصة ابتلاء ايوب (عليه السلام) هي قصة ابتلاء الابرار ابتلاءاً شخصياً، الغاية منه تقديم القدوة الصالحة لما له من الاثر الواضح في المجتمع الانساني بما يمكن ان يترتب من اثر دنيوي فضلا عن الاثر الأخروي على الصبر والتسليم.

(وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ، فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ ۖ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَابِدِينَ)[42]

وقوله تعالى

(وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ، ارْكُضْ بِرِجْلِكَ ۖ هَٰذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ، وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنَّا وَذِكْرَىٰ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ، وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاضْرِبْ بِهِ وَلَا تَحْنَثْ ۗ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا ۚ نِعْمَ الْعَبْدُ ۖ إِنَّهُ أَوَّابٌ)[43]

بنو اسرائيل بعد يوسف (عليه السلام)

انتشرت ديانة التوحيد في مصر وربوعها في ظل اخناتون ملك مصر الذي استوزر يوسف (عليه السلام) واصبحت عبادة الاوثان جريمة يحاسب عليها القانون، ووجه اخناتون ضربة

[42] الأنبياء: 83 - 84

[43] ص: 41 - 44، وكذلك ينظر المصادر السابقة في الفصل المختص بالنبي ايوب (عليه السلام)

قوية لمعبد آمون وكهنته وصادر الاموال التي كانت للمعبد والاراضي التي امتلكها وسيطر عليها كهنة المعابد المنتشرة في ربوع مصر، ومن الطبيعي في هذه الفترة المهمة من رعاية السلطة للدعوة الى التوحيد ان يكون لآل يعقوب (عليه السلام) دور كبير في الجانب التبليغي فهم حملة دين التوحيد واحفاد النبيين ابراهيم واسحق (عليهما السلام) واليهم تنتهي علوم التوحيد التي اخذوها مباشرة من بيت النبوة.

الا ان ذلك الامر لم يدم طويلا اذ بعد وفاة اخناتون وسيطرة زوج ابنته توت عنخ آمون على عرش مصر، تغير الحال تماما اذ كان الملك الجديد شديد القرب من الكهنة ومن المؤمنين بعبادة آمون، فحارب ديانة التوحيد واعاد الحال الى ما كان عليه قبل ايام اخناتون، الا ان بني اسرائيل بقيت لهم مكانتهم فلم يتعرض لهم، وبقي دين التوحيد بين المعتقدين به الذين لم يغيروا دينهم، الا انه مع استمرار الايام وزيادة طغيان المصريين الذين اعتبروا التوحيد دينا طارئا على التاريخ والفكر والثقافة المصرية ازداد بعد المصريين عن التوحيد فيما ثبتت ذرية يعقوب (عليه السلام) على التوحيد رغم جميع الظروف التي واجهوها.

في فترة تواجد ال يعقوب (عليه السلام) في مصر تكاثروا وازداد عددهم عند الخروج من مصر مع موسى (عليه السلام)[44]، وهذا يكشف عن ان مصر كانت تضم امة ضخمة من الاقباط وعبيدهم الذين كان من الطبيعي ان يكون عددهم اكثر بكثير من بني اسرائيل، حيث ان بني اسرائيل عندما نزلوا ارض مصر في عهد اخناتون لم يبلغوا ثمانين شخصا، وبعد اربعمائة سنة مثلت الفاصل بين عهد لاوي الجد الرابع لموسى (عليه السلام) والخروج من مصر ازداد عددهم زيادة هائلة فمن الطبيعي ان الزيادة السكانية لشعب الامبراطورية المصرية التي كانت في حينها من اعظم امبراطوريات الارض ان يكون عددهم اضعافا مضاعفة، ذلك لان المصدر الاساس في تلك الحقبة الزمنية كان الزراعة وقبل الثورة الصناعية ـ التي ادخلت الالة في حياة الانسان في القرن الثامن عشر الميلادي ـ كانت الزراعة تعتمد اعتمادا كبيرا على اليد العاملة التي تقتضي كثرة الانجاب لإدامة العمل والتوسع فيه.

ومع مرور الزمن وتوثق الروابط والعلاقات بين البلاط المصري وكهنة المعبد كان التضييق على بني اسرائيل يزداد وكلما بعدت السنوات وذوت ذكرى يوسف (عليه السلام) في الاذهان اخذ الصراع الحضاري بعدا اوسع وتطور الحال الى التمييز القومي، بين المصريين والوافدين الى ارضهم من بني اسرائيل، فبدأت السلطات تضيق عليهم واصبحوا بعد ان كانوا من ملاكي الارض مستخدمين لدى السلطة فكانوا يعملون لصالح البلاط المصري مزارعين وبنائين وفي غير ذلك من شؤون البلاط واملاك الفرعون المصري، ومن كان منهم لا يعمل في خدمة الفرعون تفرض عليه الضرائب.

من الطبيعي ان تشكل الكثرة العددية التي بلغها بنو اسرائيل هاجسا لدى البلاط الفرعوني فعدد كبير جدا من الموحدين في البلاد الوثنية مع اختلاطهم مع الشعب المصري من شانه ان يؤثر

[44] تشير الروايات الى ان الذين خرجوا من مصر مع موسى (عليه السلام) كانوا ستمائة وعشرين الف مقاتلا لا يحسب فيهم من كان عمره دون العشرين ولا من كان فوق الخمسين، وحيث ان الزواج في بني اسرائيل كان مبكرا كما تسمح شريعتهم بتعدد الزوجات، واحتملنا ان من كان فوق الخمسين سنة منهم ربع عدد المقاتلة فيكون عدد من كان عمرهم فوق الخمسين لا يقل عن مائة وخمسين الف رجل فاذا كان المعدل في الزيجات لكل رجل زوجتان فيكون معدل عدد النساء المتزوجات مليون وخمسمائة الف وحيث ان كل رجل من المقاتلة متزوج وله بنون وبنات فاذا كان معدل عدد الاولاد في العائلة خمسة فيكون عدد من كانوا دون العشرين اربع ملايين شخص فيكون المجموع اكثر من ستة ملايين انسان.

سلبيا في عقائد المصريين التي تحتاجها السلطة والمعابد للهيمنة على الشعب المصري الذي كانت عقيدة آمون تعتبر الملك من نسل الالهة وبذلك يامن الملك من الثورة عليه لان الانسان لا يمكن ان يثور ضد الاشخاص المقدسين، كما ان كهنة المعبد تسري عليهم القدسية من ارتباطهم بالإله الذي يعبده الشعب المصري، وفي ظل وجود عقيدة التوحيد وانكار الوهية آمون ستبطل كل هذه الدعاوى ويصبح الخطر شديدا على العرش والمعبد كما حصل في عهد الملك اخناتون، ولذا وجد البلاط ان من الضروري السيطرة على الكثرة العددية لبني اسرائيل اذ انهم يتمتعون بقوة جسدية اكسبتها اياهم طبيعة عملهم الشاق الذي يؤدونه للسلطة الفرعونية، فالقدرة الجسدية مع العقيدة مضافا اليها مقبولية الطرح، تشكل تهديدا مستقبليا واضحا، ولذا اصدر الفرعون المصري امره بالقضاء على المواليد الذكور من بني اسرائيل[45]، ودام ذبح المواليد الذكور عقودا طويلة حتى بدا النقص في عدد الذكور الذين كانوا يشكلون موردا مهما لليد العاملة التي يراد منها انجاز الاعمال الشاقة، فقرر البلاط المصري ذبح المواليد الذكور بين سنة واخرى فعام يذبح فيها الذكور واخر يتركون فكان هذا حلا وسطا للسيطرة على تنامي عدد الذكور وضمان عدم انقراضهم وهو امر اقتضته المصلحة الاقتصادية للبلاط المصري.

ومن هنا نجد ان المجتمع المصري تعرض لمحن عديدة بعد وفاة يوسف (عليه السلام) والى ان خرجوا من ارض مصر مع موسى (عليه السلام)، حيث تحول بنو اسرائيل من مجتمع له قيمة روحية عليا في عهد اخناتون الى مجتمع مستضعف، وبعد ان كانوا ملاكا للأرض التي سكنوها ايام اخناتون يزرعون الارض ويستدرون خيراتها اصبحوا يدا عاملة في مزارع البلاط واعمال السلطة، وتحول الحال بهم الى التعامل معهم كمجتمع منبوذ من مستوى عرقي ادنى من العرق المصري يحمل افكارا وقيما لا تنسجم مع العقيدة والرؤية المصرية للكون والحياة.

الا ان كل هذه الظروف المريرة التي مر بها بنو اسرائيل لم تمنعهم من التمسك بالتوحيد الذي اصبح الهوية التي تميزهم عما كان يحيط بهم من مجتمعات ضالة.

(يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ، وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ ، وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ ۚ وَفِي ذَٰلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ)[46]

ويمكن اجمال المصائب والمصاعب التي تعرض لها بنو اسرائيل في عدة نقاط:

1. مصادرة الاموال والاراضي التي كانت لبني اسرائيل ايام الملك اخناتون.
2. محاربة عقيدة التوحيد ومن يؤمن بها من قبل اجهزة السلطة الحاكمة وكهنة المعبد ودعاة الشرك في المجتمع المصري.
3. المشاكل النفسية والاجتماعية التي ترتبت على اصدر السلطة المصرية قراراها بقتل المواليد الذكور من بني اسرائيل وابقاء الاناث، وما ينتج عن الجريمة المرتكبة بحق الاطفال من حزن والم يلم بقلوب الامهات والاباء واخوة الوليد واقاربه، مضافا الى

[45] كما تشير جملة من النصوص الى ان سبب قتل الذكور كان لمنام راه فرعون مصر اخبره المعبرون فيه انه سيولد في بني اسرائيل مولود يكون على يده زوال ملكه، واغلب هذه النصوص مروية عن وهب بن منبه وهو من مسلمة اهل الكتاب وكان يروي قصص العهدين على المسلمين.

[46] البقرة 47 ـ 49، وكذلك المصادر المشار اليها سابقا في الفصل المتعلق بموسى (عليه السلام)

مشكلة الزيادة المطردة في عدد الاناث ومشكلة بناء الاسر المستقبلية بعد بلوغ النساء سن الزواج، والازمة النفسية التي يعانيها الابوان عند حصول الحمل المهدد بالقتل عند الولادة.

4. تعاطي المجتمع المصري مع بني اسرائيل كمجتمع دخيل عليهم يتعاطى معهم كما يتعاطى مع العبيد والذي يستتبعه الشعور بالذل والمهانة والضعة.
5. الانهيار النفسي والشعور المتنامي بالإحباط الذي يدفع ابناء المجتمع الى تقبل الحالة السلبية التي يتعرضون لها من قبل السلطات الحاكمة التي تتعاطى معهم بمختلف اساليب الظلم والتجهيل والقهر والاذلال.
6. التخلف الثقافي والعلمي الذي يرافق حالة الانهيار المجتمعي بسبب الظلم والفقر واثارها المدمرة.
7. مما ابتلي به بنو اسرائيل في مصر في تلك الحقبة تأثرهم بأخلاقيات المجتمع المصري التي لا تنسجم مع مقتضيات طبيعة مجتمع التوحيد، ذلك ان الفترة الطويلة التي عاشها بنو اسرائيل مع المجتمع المصري والتي قاربت الاربعمائة عام نشأ عنها تبادل ثقافي وتأثير فكري كانت لها اثاراً ايجابية في جوانب، وسلبية في جوانب اخرى، حيث تغيرت اطباع بني اسرائيل من خشونة البادية الى الطباع المدنية فاسهم اختلاطهم بالمصريين في سعة افقهم الحضاري واتباع الاساليب الاكثر تطوراً في حياتهم اليومية كما تطورت لديهم القابليات الادارية ووسعت الافق السياسي الذي اسهم في قدرتهم على اقامة مملكة التوحيد في بلاد الشام بعد حادثة التيه في صحراء سيناء، كما انتشروا في مناطق مختلفة في جزيرة العرب والعراق وبلاد فارس واسسوا لهم مراكز مستقلة بعد السبي البابلي، وتمرسوا في استغلال الظروف السياسية والاقتصادية لتحقيق مختلف المكاسب على الرغم من حملات الابادة التي تعرضوا لها على يد البابليين والمصريين. كما اسهم وجودوهم في مصر في ظهور بعض ذوي الامكانيات المالية الكبيرة كقارون فضلا عن ظهور زعامات سياسية كان لها تأثير كبير في الاوضاع السياسية العامة.

عاش بنو اسرائيل في مصر بعد ان انتقلوا من الشام جنبا الى جنب مع الاقباط ، وكان المجتمع المصري يكن لهم احتراما عظيما بحكم صلتهم النسبية بيوسف (عليه السلام) الذي انقذ المجتمع المصري من هلاك محتوم.

ارهاصات عصر موسى (عليه السلام)

تناسل بنو اسرائيل وتكاثروا حتى اصبحوا مجتمعا كبيرا، ومن الطبيعي في مجتمع كبير يعيش الى جنب مجتمع اخر يختلف عنه ثقافياً وحضارياً ان يحصل التأثير المتبادل بين المجتمعين وبالتالي انتقال بعض الصفات الخلقية السلبية الى المجتمع الذي يفترض فيه انه نما على قيم دينية حقة، والى ذلك تشير الرواية عن ابن عباس حيث قال" ان بني اسرائيل لما كثروا بمصر استطالوا على الناس وعملوا بالمعاصي، ووافق خيارهم شرارهم، ولم يأمروا بالمعروف ولم ينهوا عن المنكر، فسلط الله عليهم القبط، فاستضعفوهم وساموهم سوء العذاب وذبحوا ابناءهم"[47]

[47] البحار:52/3

من خلال النصوص الواردة حول المجتمع المصري الذي يتألف من الاقباط وهم سادة الارض في مصر وطبقة العبيد وبني اسرائيل. نجد ان المصريين وعبيدهم عاشوا ابتلاءات فكرية ومادية حيث انهم بتسلط الملك توت عنخ آمون بعد الملك اخناتون[48] عادت عبادة الاوثان وبالتالي عادت سلطة الكهنة مضافا الى سلطة الملك وما يستتبعه ذلك من هبات وضرائب تقدم للسلطة والمعبد.

كما ان رغد العيش الذي كان يتمتع به المصريون كان سببا في فتنتهم ايضا، وزيد في البلاء ادعاء فرعون انه هو الاله الخالق الرازق لأهل مصر، فالله تعالى ابتلى اهل مصر بما على الارض من زينة، فافتتنوا وفتنهم الملوك فعبدوا الاصنام ثم عبدوا الملوك والهوهم، فالمصريون حازوا السلطة والمال والهيمنة على الشعوب المجاورة والتطور والحضارة والثقافة فكانت نتيجة كل هذه المكاسب التي حازوها الكفر بالله والشرك به وعبادة الاصنام والفراعنة.

واما مجتمع بني اسرائيل فقد تعرض لعدة ابتلاءات فكرية ومادية، فمما ابتلوا به قتل الاولاد الذكور واستبقاء الاناث واستعباد الاقباط لهم ومصادرة حرياتهم، وعلى الصعيد الفكري ابتلوا بسريان الافكار المصرية لهم التي وان لم تبلغ الى مستوى العقيدة الا انها اثرت في المجتمع الاسرائيلي وتركت اثارها واضحة بعد الانعتاق من نير الظلم الفرعوني حتى عبدوا العجل واصبحت عبادته مستقرة في قلوبهم.

ومضت الاجيال بعد الاجيال بعد وفاة يوسف (عليه السلام) حتى ولد موسى (عليه السلام) في السنة التي يذبح فيها الاولاد الذكور، لتُبتلى بذلك عائلته بلاءاً خاصاً، فأخفته امه ووضعته في تابوت والقته في اليم الذي اوصله الى قصر فرعون.

(وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ ، وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي ۖ إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ، فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ۗ إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ ، وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِي وَلَكَ ۖ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰ أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ)[49]

في هذه المرحلة من قصة موسى (عليه السلام) نجد ان هناك تشابهاً من ناحية الاعداد الالهي للمجتمع بين يوسف وموسى (عليهما السلام) فالله تعالى اراد لكل منهما ان يترعرع بين ابناء البلاط في مصر وان يعيش الى جوار ارقى الطبقات الاجتماعية في المجتمع المصري.

وهناك جهة فرق بينهما (عليهما السلام) فيوسف (عليه السلام) بعث لنشر التوحيد في ارض مصر وتأسيس مجتمع التوحيد الذي ورثه بنو اسرائيل، واما موسى (عليه السلام) فبعث لإنقاذ بني اسرائيل من الذل والظلم والهوان بعد ان عاشوا بين المصريين اربعمائة سنة، وللتأسيس لإقامة الدولة الدينية الاولى في تاريخ المجتمع الانساني.

وكما ان يوسف (عليه السلام) غيب عن المجتمع المصري الذي بعث اليه بعد ان اودع السجن، فكذلك موسى (عليه السلام) غاب عن بني اسرائيل بعد ان خرج خائفا يترقب ليعود لهم بعد عشر سنين، وكما احب مستضعفي المصريين يوسف (عليه السلام) لأنه انقذهم بحسن ادارته

[48] انظر قصة الحضارة لول ديورانت المجلد الاول الجزء الاول الشرق الادنى فصل الملك المارق وفصل اضمحلال مصر وسقوطها
[49] القصص: الايات 7 - 9

وتدبيره من سنوات الجدب احب المستضعفون موسى (عليه السلام) لأنه كان يخفف عنهم شدة وطأة المتسلطين من الاقباط.

(وَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَا مُوسَىٰ إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ ، فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ ۖ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ، وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ ، وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ ۖ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا ۖ قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ الرِّعَاءُ ۖ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ، فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰ إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ، فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا ۚ فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ ۖ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ، قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ ۖ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ ، قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنْكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَىٰ أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ ۖ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِكَ ۖ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ ۚ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ)[50]

ويكمن الفرق المهم بين مجتمع يوسف (عليه السلام) ومجتمع موسى (عليه السلام) ان اخناتون ملك المصريين آمن بيوسف (عليه السلام) وحارب الشرك، على العكس من فرعون موسى (عليه السلام) الذي كان يدعي الربوبية، ففي عهد اخناتون هجر الناس عبادة الاوثان ووحدوا الله، اما في عهد فرعون موسى (عليه السلام) فانه عمل كل ما وسعه للقضاء على موسى (عليه السلام) وعلى جميع بني اسرائيل لانهم اصحروا له بالعداوة واثبت موسى (عليه السلام) ان الوهية فرعون ودينه محض خيال باطل.

كان القرار صعبا بالنسبة للبلاط الفرعوني الذي وقف عاجزا امام الابتلاءات المادية التي اصابتهم نتيجة تكذيبهم موسى (عليه السلام) المؤيد من الله تعالى بأعظم القدرات، فعصاه اثبتت للسحرة ـ الذين كانوا يمثلون الى جانب كهنة المعابد الركن الداعم لسلطة فرعون على الصعيدين الفكري والثقافي ـ صدق دعوى موسى (عليه السلام) بعد ان كانت تلقف ما يأفكون ومعجزة يده التي اذا ادخلها جيبه تحولت الى يد بيضاء من غير سوء مع ان موسى (عليه السلام) كان اسمر البشرة, فاذا اعادها عادت كما هي وعندها اعلن السحرة ايمانهم بموسى (عليه السلام) بعد ان تيقنوا ان ما جاء به موسى (عليه السلام) خارج اطار القدرة البشرية وانه حق لا يعتريه الباطل.

(قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ ، قَالَ أَلْقُوا ۖ فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ، وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ۖ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ، فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ، فَغُلِبُوا هُنَالِكَ وَانْقَلَبُوا صَاغِرِينَ ، وَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ ، قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ، رَبِّ مُوسَىٰ وَهَارُونَ ، قَالَ فِرْعَوْنُ آمَنْتُمْ بِهِ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَكَرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا ۖ فَسَوْفَ

[50] القصص: الايات 20 - 27

تَعْلَمُونَ ، لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ، قَالُوا إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ ، وَمَا تَنْقِمُ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَتْنَا ۚ رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ)[51]

كان ايمان السحرة طعنة نجلاء للبلاط الفرعوني، اذ ان ايمان السحرة بموسى (عليه السلام) يعني الاعلان على الملأ عن بطلان الديانة الفرعونية واكذوبة الوهية فرعون وعبادة الاصنام، فلم يكن امام فرعون الا القضاء عليهم، وتسخير الاعلام المضاد لاتهام موسى (عليه السلام) بالسحر وانه يريد استعباد الاقباط والسيطرة عليهم.

لم يقف الامر بين الاقباط وبني اسرائيل عند هذا الحد، اذ اصبح المجتمع القبطي امام امتحان خطير فهو اما ان يقبل دعوة موسى (عليه السلام) وبهذا يتحول المجتمع القبطي الى مجتمع خاضع لزعامة بني اسرائيل ويتحولون الى عبيد بعد ان كانوا هم سادة الارض، وبين الرفض والتمسك بعبادة فرعون صاحب السلطة والقدرة والامكانيات الواسعة. ولم يسع رؤساء الاقباط قبول دعوة موسى (عليه السلام) باي وجه من الوجوه ولذا عمل زعماء الاقباط بكل ما لديهم من طاقة للسيطرة على المجتمع القبطي لمنع تأثره بموقف السحرة الذين امنوا بموسى (عليه السلام)، وبمجريات الاحداث في يوم الزينة فعملوا بكل جهدهم لتكذيب موسى (عليه السلام) واتهامه بالسحر واثارة النعرة القومية والاجتماعية والتمجيد بفرعون ودينه، وفي المقابل كانوا يشعرون بالعجز امام موسى (عليه السلام) بسبب القدرة التي منحتها اياه العصا المعجزة، فلم يبق امام المصريين طريق الا الاستمرار في اذلال بني اسرائيل ومحاولة القضاء على موسى (عليه السلام) بجميع الوسائل.

اصطف المجتمع القبطي خلف فرعون وجهازه الاعلامي والاداري، وكان المستضعفون يُسترهبون فكريا بواسطة السحرة والكهنة الذي بقوا على ولائهم لفرعون، ويُسترهبون امنيا بواسطة عساكر فرعون واجهزته القمعية.

طالب موسى (عليه السلام) فرعون ان يسمح لبني اسرائيل بمغادرة مصر، الا ان فرعون لم يسمح بذلك لان بني اسرائيل كانوا يمثلون جزءا مهما من اليد العاملة في المجتمع المصري وفي المؤسسات التابعة لإدارة فرعون نفسه، وخروجهم يعني اختلال الوضع في البلاد بشكل كبير، ولذا زادت السلطة الفرعونية من اساليب القهر والتعذيب والتوهين والاذلال لبني اسرائيل، وكانت الارادة الالهية للمجتمع الفرعوني بالمرصاد فتعرضوا لمختلف انواع الابتلاء وفي كل مرة كان فرعون والاقباط يطلبون من موسى (عليه السلام) ان يدعو ربه في ان يرفع عنهم العذاب ويتعهدون بالسماح لبني اسرائيل بالمغادرة وما ان يرفع عنهم العذاب حتى ينكثوا العهد الذي عاهدوا عليه موسى (عليه السلام)، وحتى اذا تبين للعيان ان المجتمع القبطي ليس له اهليه الايمان وترك عبادة فرعون اهلكهم الله تعالى بإغراقهم في اليم.

(وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ ۚ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ ۚ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ ، قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا ۖ إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ۖ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ، قَالُوا أُوذِينَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا ۚ قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ

[51] الاعراف: الايات 115 - 126

وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ، وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ، فَإِذَا جَاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَٰذِهِ ۖ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَىٰ وَمَنْ مَعَهُ ۗ أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ، وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ، فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُفَصَّلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ ، وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُوا يَا مُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ ۖ لَئِنْ كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ ، فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الرِّجْزَ إِلَىٰ أَجَلٍ هُمْ بَالِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ ، فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ)[52]

واما بنو اسرائيل ففي هذه الفترة عاشوا حالة الطمأنينة في الجانب الروحي والعقائدي اذ انهم يشاهدون بام اعينهم المعجزات الباهرة لموسى (عليه السلام) التي اذلت فرعون وبلاطه لتثبت لهم حقانية دين النبي ابراهيم (عليه السلام) وبطلان دعاوى فرعون وقومه، واصبحوا يعيشون مرحلة الامل بالانعتاق من الظلم بظهور بشارات الامل مع عودة موسى (عليه السلام) من غيبته وهو البشارة التي انتظروها مئات السنين وورثها الابناء من الاباء منذ ان اخبرهم يوسف (عليه السلام) ان الاقباط سيظهرون عليهم ويسومونهم الوان العذاب حتى ينقذهم موسى (عليه السلام).

اما على الصعيد النفسي فان بني اسرائيل كانوا يعيشون الهزيمة الداخلية امام المجتمع القبطي خاصة وانهم عاشوا مستعبدين من قبلهم اربعمائة سنة نشأت على ذلك الاجيال تلو الاجيال.

فكان الامل الذي انتظروه والقهر الذي عاشوه يدفعهم دفعا لاتباع موسى (عليه السلام).

شاء الله تعالى ان ينقذ بني اسرائيل مما هم فيه ويهلك فرعون واتباعه، فامر موسى (عليه السلام) ان يخرج ببني اسرائيل من مصر رغما عن ارادة فرعون، فخرج موسى بهم من مصر دون علم البلاط الفرعوني الذين لما علموا بخروجهم اعلنوا النفير العام للحاق بهم ومنعهم من مغادرة ارض مصر حتى ادركوهم عند اليم، فكان ذلك ابتلاءاً اخر لبني اسرائيل الذين كادوا ان يهلكوا من شدة الرعب، اذ ان جيوش فرعون ان ظرفت بهم اذاقتهم الوان العذاب والتنكيل، خاصة وان فرعون قد جند كل المصريين للقضاء على بني اسرائيل، ومعروف في الامم السالفة ما تقوم به القوى المنتصرة من ابادة جماعية للقوى الخاسرة واسترقاق النساء والاطفال والمتبقين من الرجال.

في تلك اللحظة العصيبة من نشوة فرعون وجنده، وانهيار بني اسرائيل امر الله تعالى موسى (عليه السلام) ان يضرب البحر بعصاه ليفتح طريقا يبسا بين فرقي الماء الذي كان كل فرق منه كالطود العظيم، وهنا ايضا تظهر القدرة الالهية في خرق نواميس الطبيعة، فالنار لم تتمكن قبل اكثر من خمسمائة سنة من احراق النبي ابراهيم (عليه السلام) وعصى موسى (عليه السلام) تتحول الى ثعبان تلقف ما يأفكون والماء يتحول الى دم اذا اراد الاقباط شربه والجراد والقمل والضفادع تغزو مزارع وبيوت المصريين ولا تتعرض لمزارع وبيوت بني اسرائيل، وبضربة

[52] الاعراف: 127 - 136

من عصا موسى (عليه السلام) تقف حركة الماء الافقية لتتحول الى حركة عمودية وكأنما جعل سد منيع امام حركة المياه الافقية التي يقتضيها قانون الطبيعة.

وعبر بنو اسرائيل البحر الى الطرف الاخر، وفي قمة الغرور يدفع الطغيان فرعون ليلحقهم فيغرق الله فرعون وجنده كما اهلك قوم نوح وعاد وثمود، لتبدا مرحلة اخرى من مراحل الاعداد لبني اسرائيل لإقامة دولة التوحيد في بلاد الشام بعد اربعين سنة من التيه في الصحراء.

(وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي إِنَّكُمْ مُتَّبَعُونَ ، فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ ، إِنَّ هَٰؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ، وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ ، وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَاذِرُونَ ، فَأَخْرَجْنَاهُمْ مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ، وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ، كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ ، فَأَتْبَعُوهُمْ مُشْرِقِينَ ، فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَىٰ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ، قَالَ كَلَّا ۖ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ، فَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ ۖ فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ ، وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الْآخَرِينَ ، وَأَنْجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ ، ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ)[53]

بنو اسرائيل في التيه

من خلال تتبع الاحداث المركزية التي رافقت عبور بني اسرائيل البحر يمكن ان نؤشر عدة امور:

1. تأثر بنو اسرائيل تأثراً سلبياً نتيجة طول فترة التهميش والإذلال وممارسات القهر التي عانوها من قبل المجتمع القبطي، التي نتج عنها هزيمة داخلية في الفرد والمجتمع وتحول بنو اسرائيل الى مجتمع خانع يبحث عن مكاسب جزئية فاقد لروح التضحية والاقدام والمبادرة، ومع انهم كانوا مؤمنين بنبوة موسى (عليه السلام) الا ان ما عاشته الاجيال تلو الاجيال من روح انهزامية كانت عائقا امام تحقيق الغايات المهمة التي من شانها ان تحقق لبني اسرائيل مرحلة جديدة من مراحل الوجود السياسي، الذي يهدف الى قيام دولة دينية لأول مرة في التاريخ الانساني.
الانهزامية التي عاشها مجتمع بني اسرائيل كانت تستدعي اعادة بناء الشخصية تحت رعاية مباشرة من قبل النبي موسى (عليه السلام)، فاستدعى ذلك عزل بني اسرائيل عن المجتمعات البشرية الاخرى وتخليص مجتمع بني اسرائيل من الاشخاص الذين يشكلون تهديدا مستمرا لحركة الاصلاح الاجتماعي، لذا بقي بنو اسرائيل في التيه اربعين عاماً توفي فيها الغالبية العظمى ممن كان عمره اكثر من عشرين سنة ممن عبر مع موسى (عليه السلام) البحر، بل تنص جملة من الروايات ان الذين بقوا حتى خرجوا من التيه هما وصيا موسى (عليه السلام) يوشع بن نون (عليه السلام) وكالب بن يوفنا ـ زوج كلثم بنت عمران ـ الذي حكم دولة بني اسرائيل بعد وفاة يوشع بن نون (عليه السلام) وقد اشار القران الكريم الى هاتين الحقيقتين في قوله تعالى

﴿يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ ، قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ ، قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ

[53] الشعراء: الايات 52 - 66

يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ ۚ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ، قَالَ رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي ۖ فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ، قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ ۛ أَرْبَعِينَ سَنَةً ۛ يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ ۚ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾[54]

وقوله تعالى

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ۚ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾[55]

2. الجهل المعرفي لدى عامة بني اسرائيل، والتأثر بالعقائد والديانات الباطلة التي كانت سائدة في مصر، ولم يظهر بنو اسرائيل تأثرهم بالعقائد المنحرفة في الوقت الذي كانوا تحت النير الفرعوني لانهم كانوا يعيشون ازمة الهوية، وازمة الهوية لها دور كبير جدا في حفظ الاقليات الاجتماعية سواء كانت هذه الهوية قومية او فكرية او اجتماعية، ولكنهم بعد ان تحرروا من الظلم الذي عانوه في ظل الاقباط، واصبحوا امة خالصة في سنوات التيه الاربعين ليس بينهم شخص غير بني يعقوب (عليه السلام) وقد انقسموا الى اثني عشر قبيلة كل قبيلة ينتهي نسبها الى واحد من ابناء يعقوب (عليه السلام) الاثني عشر، فزال عنهم ما كانوا يعيشونه من ازمة الهوية، واصبحوا احرارا في الإدلاء بآرائهم وافكارهم واضحوا قادرين على بيان ما يريدون والذي يظهر منه جليا الانعكاسات النفسية والمتبنيات الفكرية والاجتماعية لكل فرد او مجموعة منهم، وقد انعكس ذلك جليا في العديد من المناسبات التي منها انها لما مروا على قوم عاكفين على اصنام لهم طلبوا من موسى (عليه السلام) ان يجعل لهم الها كما لهم الهه فزجرهم موسى (عليه السلام) عن ذلك، وبعد ان صنع السامري لهم عجلا جسدا من ذهب له خوار عبدوه واشربوا في قلوبهم العجل بكفرهم، وهذا الجهل المعرفي كان احد نتائج مسيرتهم الطويلة في الذل والامتهان التي مروا بها بسبب قهر الاقباط لهم، وبذلك اصبحوا مجتمعا ورث التوحيد مع جهل معرفي كبير الذي سببه طول فترة معاشرة الوثنيين وعباد البشر، فكان بنو اسرائيل يعيشون صراعا فكرياً بين الايمان بالغيب والوحدانية الذي ورثوه عن ابائهم وعبادة الاوثان والفراعنة التي كان يمارسها مجتمع الاغلبية الذي كانوا يعيشون معه في مصر وهو مجتمع يميل الى الاعتقاد بالمحسوس المادي.

(وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰ أَصْنَامٍ لَهُمْ ۚ قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ، إِنَّ هَٰؤُلَاءِ مُتَبَّرٌ مَا هُمْ فِيهِ وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ، قَالَ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ)[56]

[54] المائدة: الايات 21 - 26

[55] البقرة:54، وكذلك انظر المصادر الروائية المشار اليها في الفصل المختص بفترة التيه

[56] الاعراف: 137 - 139

3. حديث بني اسرائيل يكشف ان هناك فرق كبير بين الموروث والإيمان، فان عقيدة التوحيد في بني اسرائيل كانت موروثة، وقد تأثر هذا الموروث عبر الاجيال نتيجة الاختلاط بالمصريين والتأثر بحياتهم الفكرية القائمة على الشرك وتأليه الفراعنة، ونتيجة الاضطهاد والاستعباد نشأت اجيال هجينة تعتنق التوحيد عقيدة اجتماعية تربطه علائق خاصة يعيش الاضطهاد والقهر ويدفعه نحو التمسك بالتوحيد محاولة الحفاظ على الهوية التي تميزه عن المجتمع الذي اذاقه الويل والهوان.
ولذا يشير القران الكريم الى ان الذين امنوا بدعوة موسى (عليه السلام) وسلموا له تسليما كان عدد قليل من شباب بني اسرائيل.

﴿ فَمَا آمَنَ لِمُوسَىٰ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِنْ قَوْمِهِ عَلَىٰ خَوْفٍ مِنْ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَنْ يَفْتِنَهُمْ ۚ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ﴾[57]

4. الاثر السلبي للحرية المفاجئة بعد الاستعباد الطويل، حيث لم تتمكن ذهنية بني اسرائيل من استيعاب الحرية التي نالوها في مختلف المجالات الفكرية منها والاجتماعية والمادية، الحرية شبه المطلقة حولتهم الى مجتمع مغرق بالسلبية، فبعد ان كانوا يرتجفون فرقا ورعبا من فرعون وجيوشه اصبحوا متمردين على ما يأمرهم به موسى (عليه السلام) مما يقتضيه تأسيس الدولة والقيام بشؤونها، ذلك لانهم عاشوا حياة العمال والمزارعين لا حياة القادة والمقاتلين، وحياة العبيد لا حياة السادة، وهذا المنحى الحياتي يجعل المجتمع متكلاً على غيره في جميع الشؤون المصيرية ويجنح نحو التمرد تغطية لحالة الانهزامية، لذلك نجد ان بني اسرائيل عندما ادركتهم جيوش فرعون بدلا من يعمدوا الى امتشاق السيوف للدفاع عن انفسهم وذراريهم اخذوا يلقون باللوم على موسى (عليه السلام) لأنه اخرجهم مما كانوا فيه، وانه سوف يتسبب بقتلهم جميعا بينما كانت لهم فرصة البقاء احياءاً في ظل الظلم والطغيان الفرعوني، ومرة اخرى عندما مروا على قوم عاكفين على اصنام لهم طلبوا الى موسى (عليه السلام) ان يجعل لهم الها كما لهم الهة ولم يدر في خلدهم ان يصنعوا الاله المادي الذي يرغبون ان يعبدوه، وثالثة عندما دعاهم موسى (عليه السلام) للدخول الى الارض المقدسة التي كتبها الله لهم رفضوا دعوة موسى (عليه السلام) وقالوا ان فيها قوماً جبارين وانهم لن يدخلوها حتى يخرج الجبارون منها، ثم اعلنوها بوجه موسى (عليه السلام) اذهب انت وربك فقاتلا انا هاهنا قاعدون. ورابعة عندما جاءوا الى موسى (عليه السلام) بطرين على النعم الالهية التي تصلهم من ارزاق السماء حيث كانوا يرزقون المن والسلوى ليكون طعاماً لهم فطلبوا الى موسى (عليه السلام) ان يطلب من ربه ان ينوع الطعام المنزل اليهم لانهم اعتادوا على اطعمة متنوعة في مصر وانهم يريدون من الله تعالى ان ينوع لهم الطعام الذي يأكلونه.
5. يتضح من قصة بني اسرائيل في التيه ان الانحرافات الفكرية والانهزامية الداخلية كانت اسباباً مهمة في فشل ذلك المجتمع في تحقيق الاهداف التي لإجلها اخرجوا من مصر، فمن ينظر الى حركة التاريخ المجتمعية يجد ان مجتمع بني اسرائيل البدوي احتاج الى

[57] يونس:83

اربعة قرون ليتحول من مجتمع البداوة الى مجتمع حضري مؤهل لبناء دولة على الاسس الفنية والادارية التي تقتضيها قيام الدول في تلك العصور، وفي مقابل ذلك كانت هناك حاجة اخرى الى تطهير هذا المجتمع من التلوث الفكري ومرض الاتكالية والانهزامية، التي تسببت بهما الفترة الطويلة من التأثر بأفكار المجتمع القبطي القائمة على عبادة الاوثان والاشخاص، وقد بدا مدى تأثرهم الفكري واضحا عندما طلبوا من موسى (عليه السلام) ان يجعل لهم اصناما ليعبدوها ومسارعتهم لعبادة العجل الذي صنعه لهم السامري، وعلى الصعيد الاجتماعي فإن الإنهزامية كانت واضحة في مواقفهم عند البحر وعندما امرهم موسى (عليه السلام) بالدخول الى الارض المباركة.
وهذان الامران كانا يستدعيان اصلاح المجتمع اصلاحا جذريا والا لم تكن المهمة التي كلفوا بها لتنجح لولا ذلك، ذلك ان اللوثة الفكرية سوف تسري في المجتمع وفي الدولة الجديدة التي ستقام لتؤسس لعبادة الاوثان جنبا الى جنب لعبادة التوحيد، كما ان الانهزامية ستتسبب في انهيار الدولة عند ادنى تعرض للخطر الخارجي او الفتنة الداخلية، وكان هذا الاصلاح يتوقف على امرين الاول زوال الطبقة الفكرية المنحرفة والثاني اعادة بناء الشخصية الفردية والاجتماعية واقتضت فترة الاصلاح الذاتي والاجتماعي فترة اربعين سنة انقطع فيها بنو اسرائيل انقاطاعاً تاماً عن التواصل مع المجتمعات البشرية الاخرى، وبعد ان تم القضاء على عبدة العجل في ساحة اعدام جماعية جرت على يد ابناء المجتمع انفسهم بموافقة الذين عبدوا العجل كشرط للعفو الالهي عنهم، حتى اشارت جملة من الروايات انه قتل في ذلك اليوم سبعين الفاً من عبدة العجل مقابل التكفير عن ذنبهم.

(وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَىٰ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ ، ثُمَّ عَفَوْنَا عَنْكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ، وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ، وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ۚ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ، وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَىٰ لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ ، ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ)[58]

والخلاصة ان الاثار السلبية التي رافقت حياة بني اسرائيل كانت تحتاج الى صدمات وهزات اجتماعية وشخصية كي يكون المجتمع مهيأ للقيام بالدور الذي اراده الله تعالى له ومن الجدير في المقام الاشارة الى عدة سبل مكنت من اعادة بناء المجتمع:

أ- عدم استجابة موسى (عليه السلام) لهم لتبديل طعامهم، بل قال لهم اذا كنتم تريدون الاستبدال فعليكم بالاعتماد على انفسكم فانزلوا الى مصر فان فيها ما طلبتم، فسكتوا عن طلبهم والقموا حجرا

[58] البقرة: الايات 51 - 56

﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَىٰ لَنْ نَصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا ۖ قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَىٰ بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ ۚ اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُمْ مَا سَأَلْتُمْ ۗ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ۗ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾[59]

ب- تدمير العجل الذي صنعه السامري واحراقه والقائه في اليم لإظهار التوهين لهذا الجسد الضعيف الذي لا يملك لنفسه ضراً ولا نفعاً والتأكيد على عدم اهليته للربوبية كما عوقب السامري بالطرد من بين بني اسرائيل ومقاطعته ليكون مثالا لكل مغضوب عليه ومنبوذ، والقضاء على الذين عبدوا العجل بعد ان اظهروا توبتهم وندمهم بعد ان علقت السماء قبول التوبة على قبول القتل وازهاق الروح.

ت- كان التيه عبارة عن دورة تأهيلية وتدريبية لبني اسرائيل دامت اربعين سنة، مات فيها المجتمع الذي تغلغلت في عقله الباطن اثار الحياة السابقة في ظل الاقباط من مختلف النواحي الفكرية والاجتماعية والأخلاقية، ونشات اجيال جديدة خبرت صعوبات الصحراء وتأدبت بآداب النبوة حيث كان المشرف على تدريبهم وتأهيلهم موسى وهرون ويوشع وكالب وحزقيل (عليهم السلام)، فزالت من اذهانهم تأثيرات عبادة الاصنام وتنزهت افكارهم عن الاوهام والخرافات والاساطير التي عاصرتها الاجيال التي تقدمتهم، وزال من عمق ادراكهم الذل والهوان الذي عاشه اسلافهم في مصر، وورثوا عن اسلافهم الجوانب الحضرية التي تؤهلهم لإدارة الدولة كما نظموا صفوفهم في ظل الإدارة المجتمعية الجديدة التي تمثلت بالأنبياء القادة الذين مر ذكرهم، وفي هذه الفترة من حياة بني اسرائيل نزلت التوارة وبدأت مرحلة الشريعة الموسوية.

ث- ولغرض تحقيق احد غايات التيه وهو اعتماد بني اسرائيل على انفسهم وعدم اتكالهم على المعجزة وخوارق العادات التي شاء الله تعالى ان تجري في موارد محددة لغايات خاصة، توفي موسى وهرون (عليهما السلام) في التيه، فكانت وفاتهما (عليهما السلام) المرحلة الاخيرة من مراحل اعداد بني اسرائيل لمهمة القادمة في الارض المقدسة[60].

[59] البقرة:61

[60] انظر المصادر السابقة في فصل وفاة موسى وهرون عليهما السلام

ج- مضافا الى ما تقدم فان العقوبات الالهية كانت الغاية منها الاعداد المجتمعي لقيام مجتمع صالح ينشر شريعة الله تعالى على الارض، واذا تتبعنا عوامل القوى السياسية العظمى المتصارعة على الارض نجد ان اعظم امبراطوريات الارض في ذلك الزمن كانت تتناوبها القبائل الفارسية والبابلية والاشورية والقبطية، فتارة يملك البابليون الارض من الشام وحتى الهند والصين، واخرى يسيطر الفرس عليها ويمتد سلطانهم الى مصر والبلدان التابعة لها، واخرى تنهض الامبراطورية القبطية لتملك ارض مصر والشام وتنافس بابل وفارس، وفي الفترة التي كان فيها بنو اسرائيل في التيه كانت الامبراطورية الفارسية تعاني من انشقاقات داخلية وصراع بينها وبين الاتراك على بابل فكانت بلاد الشام في مأمن من الخطر العسكري الشرقي، وبعد هلاك فرعون وجيشه ضعفت الامبراطورية القبطية كثيرا، اذ تشير الروايات الى ان جيش فرعون الذي اغرقه الله تعالى كان عدده اكثر من مليون مقاتل هلكوا في ساعة واحدة، وكلما ضعفت سلطة الاقباط المركزية تمردت البلدان التي تحت نفوذها عليها لذلك كانت سوريا دائما تتمرد على مصر، ولكن مصر تعيدها الى سلطانها بين آونة واخرى، وكان الذين يحكمون الشام اقوام متفرقة من الكنعانيين وغيرهم لا يخضعون لسلطة مركزية اذ كانوا عادة خاضعين اما للأقباط او الفرس او البابليين او الاشوريين، فكانت بلاد الشام المنطقة الرخوة التي يمكن لقوة عسكرية شابة تتمتع بقوة عقائدية ومفعمة بالحيوية والنشاط ان تتمكن من تحقيق انتصارات كبيرة واقامة دولة مركزية في بلاد الشام[61].

اقامة دولة التوحيد

بعد اربعين سنة من التيه طُهُر المجتمع فيها من الطبقات الاجتماعية التي حملت رواسب فكرية منحرفة وأخلاقاً اجتماعية انهزامية، وانزلت التوراة لتكون دستورا للعمل ينظم حياة الفرد والمجتمع، وفي تلك الفترة تمت ازاحة الحركة المناوئة لموسى (عليه السلام) والتي تبناها قارون الذي كان يسعى لمنافسة موسى (عليه السلام) في زعامة بني اسرائيل ويقود المؤامرات المختلفة لإثارة المشاكل المختلفة مستغلا ثروته المالية الضخمة فخسف الله به وبثروته الارض، ليكون عبرة لغيره، وفي تلك الفترة الزمنية ايضا توفى موسى وهرون (عليهما السلام) وحل يوشع بن نون (عليه السلام) محل موسى (عليه السلام) في قيادة بني اسرائيل لتنتهي بذلك فترة اعتماد بني اسرائيل على عصا موسى (عليه السلام) والمعجزات الإلهية التي كانت توفر لبني اسرائيل متطلبات الحياة في التيه، ففترة التيه كانت فترة تربية وتأهيل لبني اسرائيل لبنائهم

[61] انظر ول ديورانت قصة الحضارة الجزء المختص بالشرق الادنى والحضارة اليهودية

فكرياً ونفسياً واجتماعياً، مضافاً الى القيم الحضرية التي نشأت عليها المجتمعات المتعاقبة من بني اسرائيل في مصر والتي بالمجموع أهلتهم لإنشاء دولة التوحيد الاولى على الارض التي لها دستورها الإلهي تشريعات التوراة لينظم علاقة العبد بربه وينظم العلاقات والروابط الإجتماعية والإقتصادية، مضافاً الى الخبرة في الجانب الإداري المستمد من التجربة البشرية في ظل الحضارة المصرية.

وبعد تأهيل بني اسرائيل اختار الله تعالى لهم الزمان والمكان المناسبين لنجاح حركتهم في بناء الدولة، فمن حيث الزمن كانت اعظم القوى التي بالشام هي الامبراطوريات الشرقية في بابل وفارس والإمبراطورية المصرية في الغرب التي بمجموعها كانت تعيش خريف حضارتها وتمزقها الحروب وتشرذمها وتضعف قوتها، ففارس وبابل كانت تعاني من الحروب الداخلية وانفصال اجزاء من الامبراطورية وهجمات القبائل البدوية التي اضعفت مركز الامبراطورية، اما مصر فان غرق فرعون وجيشه اضعف قوة مصر كثيرا، ولكن أياً من المنطقيتين لم تكن من الضعف بحيث يتمكن بنو اسرائيل من اقامة دولتهم فيها.

واما من حيث المكان فان بلاد الشام كانت هي المنطقة الرخوة التي يمكن لبني اسرائيل ان يحتلوها عسكريا لإقامة دولتهم فيها، لأن قبائل الشام كانت تارة تخضع لسيطرة الامبراطوريات الشرقية واخرى لسيطرة الامبراطورية المصرية، وفي حال ضعف القوى العظمى في ذلك الوقت تتمرد القبائل التي تسكن بلاد الشام على الدول الضعيفة، وتتناحر فيما بينها للحفاظ على استقلالها عن بعضها فلم تتوحد القوى القبلية في بلاد الشام يوماً لتكون دولة واحدة قوية في وجه الامبراطوريات الاخرى، ولذا كانت منطقة بلاد الشام هي المنطقة الاكثر مناسبة لقيام دولة بني اسرائيل، من ناحية الموازين العسكرية مضافا لما تتمتع به بلاد الشام من ثروات طبيعية وموقع جغرافي يشكل العصب الاقتصادي للدولة الفتية.

قاد يوشع بن نون (عليه السلام) بني اسرائيل وخاضوا حروباً دامية ضد القبائل التي سكنت بلاد الشام وفرضوا سيطرتهم على تلك البلاد واصبحت لهم دولة مستقلة بين الفرس والبابليين من جهة والمصريين من جهة اخرى، وكانت تلك الدولة تحكم مباشرة من قبل الأنبياء حيث حكمهم يوشع بن نون ومن بعده كالب بن يوفنا ثم الت الزعامة من بعده الى حزقيل النبي (عليهم السلام).

انحراف بني اسرائيل عن جادة الحق

يظهر من متابعة الروايات عن حياة انبياء بني اسرائيل ان إدارة البلاد بعد كالب او بعد حزقيل (عليه السلام) تم الفصل بين السلطة الدينية والسلطة الزمنية، واستمر حال بني اسرائيل على هذا المنوال حتى وقع بينهم الشقاق والصراع على السلطة وبدلا من الدولة الواحدة انشقت الدولة الى دولتين كانت عاصمة احداهما الناصرة والاخرى يهوذا، ووقعت بينهما حروب دامية وحصلت تعديات من كل من الطرفين على الاخر، وكنتيجة صراع طبيعي بين الاطراف المتنازعة كانت احدى العاصمتين ترتبط بمعاهدات مع مصر والاخرى ترتبط ببابل، وبهذا فقد بنو اسرائيل وحدتهم واصبحت دولة الموحدين خاضعة سياسياً وامنياً للدول المشركة التي تحكم مصر وبابل.

وكنتيجة طبيعية لانفصال السلطة الزمنية عن السلطة الدينية، وعدم التزام الملوك بتعاليم الأنبياء عليهم السلام، ظهرت طبقة من رجال الدين تناغم متطلبات السلطة على الرغم من عدم انسجامها مع مقتضيات الشريعة، واصبحت للجانب الديني المتناغم مع السلطة مؤسسة ادارية شأنها في ذلك شأن المعابد في الحضارتين المصرية والفارسية، واصبح للكهنة مكانة خاصة تفرضها اجتماعياً القدسية وعملياً السلطة الحاكمة.

واصبحت المؤسسة الدينية الرسمية تعمل على حفظ الطقوس العبادية مع افراغها عن محتواها ليتمكنوا من السيطرة على المجتمع وترسيخ سلطتهم الروحية عليه.

وقد اكدت النصوص القرآنية الانحراف الفكري والأخلاقي لدى المؤسسة الإدارية الدينية، فيما تعرض الأنبياء لمختلف الوان الايذاء والاستهداف حتى قتل عدد من الأنبياء وكذب اخرون لانهم انكروا على السلطة الزمنية والزعامات الدينية تحريف النصوص والاحكام والابتعاد عن أخلاقيات الشريعة.

وكما جرى في المجتمعات البشرية الأخرى فإن العقوبة الإلهية استهدفت مجتمع بني اسرائيل بعد انحرافهم حتى فقدوا استقلاليتهم نتيجة لابتعادهم عن احكام الشريعة التي تقتضي الاتحاد والتآزر والتآخي واستبدلوها بالتفرق والتآمر والعداوة والحروب وسفك الدماء ومخالفة احكام الشريعة فضعفوا واصبحوا ممالئين للمشركين ضد اخوانهم في الدين والنسب.

والتفت بنوا اسرائيل في نهاية المطاف الى الخلل الكبير الذي وقعوا فيه نتيجة الإنحراف عن جادة الشريعة وتمكن قبائل العماليق من هزيمتهم والسيطرة على اراضيهم واستعبادهم ومصادرة اموالهم واذلالهم فطلبوا من النبي شموئيل (عليه السلام) ان ينصب لهم ملكا يقاتلون تحت لواءه لينقذهم من الذل والهوان الذي عاشوه، فاخبرهم بان الله نصب طالوت ملكا عليهم لإستعادة مجد دولة التوحيد التي اضاعوها نتيجة تفرقهم ومعاصيهم وابتعادهم عن الاحكام الالهية[62].

طالوت وبنو اسرائيل

ارتكب بنو اسرائيل المعاصي وابتعدوا عن ساحة القدس الالهي واتبعوا الشهوات وظلم بعضهم بعضا وخالفوا كتاب الله فتشتت امرهم وضعفت قوتهم حتى استضعفتهم القبائل التي كانت تسكن الشام واحتلت ارضهم واستعبدتهم واذلتهم.

شعر بنو اسرائيل بالخطأ الفادح الذي وقعوا فيه وعاد الى اذهانهم المجد الذي نعموا به ايام يوشع بن نون (عليه السلام) ومن حكمهم بعده من الأنبياء والملوك الصالحين، فذهبوا الى النبي شموئيل (عليه السلام) وطلبوا منه ان يعين لهم ملكاً يقاتلون تحت لوائه لإعادة سلطان بني اسرائيل الزائل، فأراد النبي شموئيل (عليه السلام) اختبار صدق نواياهم فسألهم انهم ربما ان كتب عليهم القتال ينكصون على الاعقاب، فقالوا وما لنا ألا نقاتل في سبيل الله بعد ان طردنا من ارضنا واهلينا وصودرت اموالنا وذقنا الذل والصغار، وبعد ان اطمأن شموئيل (عليه السلام)

[62] انظر بحار الانوار وتاريخ الطبري الجزء الاول وقصص الانبياء للجزائري وابن كثير الفصل المختص بنبوة داود (عليه السلام)

من صدق نواياهم سأل الله تعالى ان ينصب لبني اسرائيل ملكا يقاتلون تحت لوائه لإعادة مجدهم المستلب وعزهم المهتضم، فأوحى الله تعالى اليه ان ينصب طالوت ملكاً عليهم.

(أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَإِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَىٰ إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ۖ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا ۖ قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا ۖ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ، وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا ۚ قَالُوا أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمَالِ ۚ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ ۖ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَنْ يَشَاءُ ۚ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ، وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَىٰ وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ)[63]

بعد القرون المتمادية التي مرت على بني اسرائيل وزيادتهم العددية وتباين امكانياتهم المادية وثرواتهم وقدراتهم، تعددت الطبقات الاجتماعية بين الاسباط ثم تمايزت عوائل الاسباط فيما بينها وتمايزت بيوتات العوائل فيما بنيهم فغدت الطبقات الاجتماعية متفاوتة بين بني اسرائيل ولم يعودوا عائلة واحدة كما كانوا على ايام يعقوب (عليه السلام)، كان طالوت من اقل البيوت شانا على مختلف الموازين الطبقية التي كانت تحكم مجتمع بني اسرائيل في ذلك الزمن، وكان هذا السبب داعيا لإعتراض بني اسرائيل على نصب طالوت ملكاً عليهم، فإن احد اسباب الانحراف في المجتمع الاسرائيلي انهم جعلوا لمبانيهم الاجتماعية الحاكمية على واقعهم، وبدلا من ان يسلكوا السبل الموضوعية للحفاظ على كيانهم في وجه التحديات التي كانت تحيطهم خلقوا لهم وضعا خاصا نابعاً من عصبيتهم العائلية التي ادت الى انهيارهم امام التحديات التي واجهتها دولتهم في بلاد الشام.

اعترض بنو اسرائيل على نصب طالوت لأنه ليس من عوائل الملوك وليست لديه امكانية مالية عالية وهذا مؤشر على ما انطوت عليه روحية بني اسرائيل من التمرد على الأوامر الإلهية ورغبتهم في جريان الأمور حسب مشتهياتهم وهذه القضية تتعلق بالجانب القيمي لدى الانسان الذي يعتبر ان ما يتبناه هو الطريق الصحيح بلحاظ الارث المجتمعي والعائلي بعيدا عن الموضوعية ومقتضيات الصراع والسياسي والتحديات الامني والاقتصادية.

على العكس من المنهج الإسرائيلي المنحرف فالمنهج الإلهي قائم على انتخاب الشخصية ذات المؤهلات اللازمة لتحقيق الاهداف المنشودة.

كانت ظروف الانتصار تقتضي توفر ثلاث امور اساسية: القيادة الحكيمة، المقاتلين المخلصين، القضاء على جالوت. وسنتطرق بإيجاز الى هذه الامور الثلاثة.

الأمر الأول: القيادة الحكيمة

[63] البقرة: الايات 246 - 248

ان اي مشروع يراد له النجاح من الضروري ان توجد شخصية او مجموعة اشخاص يكون لهم دور دراسة الموضوع الذي يواجهونه لتحديد الخطوات التي يجب اتخاذها في سبيل الوصول الى الغاية وتحقيق الهدف المنشود، وفي موردنا كانت هناك عدة عناصر على الارض لابد من احاطة القائم على المشروع بها وان تكون له القدرة على تشخيص السبل الكفيلة باستنهاض الطاقات وتجاوز الصعوبات، ومورد البحث فيه ثلاث جوانب مهمة:

أ- مجتمع بني اسرائيل الذي يطلب بعض ابنائه اعادة المجد الذي اسسه موسى (عليه السلام) وبناه يوشع بن نون (عليه السلام) وخسروه بسبب تمزقهم وتشتتهم، وهذا المجتمع فيه شخصيات انهزامية واخرى اتكالية وثالثة متكبرة ورابعة مضحية ومتفانية.

وهذا الواقع الاجتماعي اذا حضر بمجموعه غير المنسجم ساحة القتال فمن المؤكد ان الهزيمة هي نصيبه الحتمي، فمن الضروري غربلة هذا المجموع لاستخلاص المضحين والدخول بهم الى ساحة المعركة من دون اثارة حساسية بقية اصناف المجتمع التي اشرنا اليها، لان اثارتهم تعني خلق مشاكل كبيرة تؤدي الى زعزعة الوضع العام وانهيار جبهة بني اسرائيل الداخلية قبل دخول المعركة.

ولذا لم يصرح طالوت بأي شيء من شأنه ان يفت في عضد قواته حتى وصل الى نهر يفصل بين قواته وقوات جالوت، فأخبر قواته ان الله تعالى مبتليهم بنهر فمن شرب منه فليس له الحق في البقاء في جيش طالوت وعليه ان يعتزل، كانت هذه التوصية برزخا فاصلا بين المضحين وغيرهم من اصناف مجتمع بني اسرائيل، اذ شرب غالبية الجيش من النهر حتى الارتواء فإعتزلوا جيش طالوت وبقي فيه المخلصون المضحون الذين نذروا ارواحهم رخيصة لإعادة الحياة الحرة الكريمة لقومهم في ظل النبي شموئيل (عليه السلام) والملك طالوت.

وهنا تتجلى حكمة طالوت في قيادة جيشه اذ اختار الاختبار المناسب لهم والوقت المناسب الذي فوت على المشاغبين من بني اسرائيل فرصة تمزيق الصف وانتخب الافراد الصالحين لخوض المعركة ضد جيش قوي يقوده ملك جبار.

(فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ ۚ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ ۚ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ ۚ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُو اللَّهِ كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ)[64]

ب - العمالقة وقائدهم جالوت

سكن العمالقة بلاد الشام قبل ان يهاجر اليها بنو اسرائيل من مصر، وبعد هجرة بني اسرائيل من مصر خاضوا حروبا طويلة ضد القبائل التي كانت تسكن الشام ومن بينها قبائل العمالقة والكنعانيين وتمكنوا من الانتصار عليهم واقامة اول دولة تجمع بين القانون الالهي والسلطة

[64] البقرة: 249

الزمنية بعد ان تحول مجتمع بني اسرائيل الى مجتمع عقائدي نتيجة التأديب والتأهيل والتزكية التي عاشوها اربعين سنة في التيه.

وبعد ان ضعفت قدرة بني اسرائيل نتيجة الصراعات والانشقاقات الداخلية تمكن العمالقة من قهر بني اسرائيل والسيطرة على ارضهم وطردهم منها واستضعافهم.

كان وجود الملك جالوت احد عناصر قوة العمالقة، اذ كان جالوت يتمتع بقدرة عسكرية عالية وشجاعة فائقة وقوة جسدية مكنته من إدارة الصراعات المسلحة بنجاح فحقق انتصارات كبيرة في جميع المعارك التي كان يخوضها ضد اعدائه، ولذا كان قتل جالوت هدفاً اعلامياً مهماً وله اثر نفسي بالغ يمكن ان يحقق كسباً عسكرياً في غاية الاهمية لجيش طالوت، ولذا كان لابد لطالوت من اعداد قوة تتولى تلك المهمة للإسراع في كسب المعركة واستثمار نتائجها[65].

ج ـ اقامة دولة بني اسرائيل

كان طلب المجتمع الاسرائيلي من النبي شموئيل (عليه السلام) اعادة دولة بني اسرائيل التي كان يحكمها ملك منهم وفي ربوعها تنتشر دعوات الأنبياء وتعاليمهم، ولذا لم يكن الامر الذي يواجه طالوت مسألة الانتصار على جالوت والعماليق، بل الهدف الاساس اعادة بناء دولة بني اسرائيل ولذا كان عليه ان يحفظ توازن القوى المجتمعية لبني اسرائيل بعد ان يحقق الانتصار العسكري على العماليق، ومن هنا كان عليه ان يستعين بمستشارين مخلصين يعملون على بذل النصيحة بما يعود بالخير على المجتمع في وضعه الداخلي بعد عودة سلطانهم وحماية حدود دولتهم من الاخطار التي تواجهها، وقد ادار طالوت بحكمته الدولة الجديدة إدارة جيدة تمخض عنها تهيئة المجتمع لقبول إدارة داود (عليه السلام) للبلاد بعد طالوت، ليعود بذلك اجتماع النبوة والملك في شخصه.

الامر الثاني: المقاتلون المخلصون

من الطبيعي في قوانين الحرب ان القيادة الفذة لوحدها لا يمكن ان تحقق النصر في ساحة المعركة، اذ تحقيق النصر موقوف على القيادة الفذة والمقاتلون المضحون المخلصون المطيعون لقيادتهم، فما لم يكن الجنود مخلصين لقيادتهم مطيعين لها لا يمكن ان يتحقق النصر في ميدان الصراع، وابرز الشواهد على ذلك معركة احد التي خاضها المسلمون بقيادة النبي (صلى الله عليه واله) ضد مشركي قريش فالنصر كان حليف المسلمين في بداية المعركة ولكن مخالفة الرماة لأوامر النبي (صلى الله عليه واله) مكن خالد بن الوليد وخيالة المشركين من الالتفاف على جيش المسلمين وبالتالي خسارة المسلمين المعركة واستشهاد سبعين منهم وفرار المسلمين من ساحة القتال تاركين النبي وامير المؤمنين (صلوات الله عليهما والهما) وحيدين في ساحة المعركة، وتكرر الحال في معركة صفين ايام الخلافة الزمنية لأمير المؤمنين علي بن ابي طالب (عليه السلام).

ولذا كان من الضروري تشخيص الافراد الذين جعلوا انفسهم قرابين للدفاع عن الامة وهؤلاء هم من يستند اليهم ويتكأ عليهم لبناء مستقبل الامة والدفاع عن امنها، والا فان المجتمع

[65] انظر المصادر المتقدمة في فصل قصة طالوت

الاسرائيلي سبق له ان تعاطى بانهزامية عندما طلب اليهم موسى ان يدخلوا الارض المباركة التي وعدهم الله تعالى انها لهم ولكنهم تخاذلوا وجبنوا وقالوا ان فيها قوما جبارين، فعاقبهم الله تعالى بان تاهوا اربعين سنة حتى زالت الاجيال الانهزامية وتبدل المجتمع الى مجتمع اخر في قيمه وأخلاقياته.

وجود صفة الانهزامية في مجتمع بني اسرائيل استدعت طالوت الى تمييز افراد جيشه كي لا يخوض معركة خاسرة بسبب عدم انضباط جنوده او عدم اخلاصهم للقضية التي يقاتلون في سبيل تحقيقها، نصت جملة من الروايات ان جيش طالوت كان يضم ثمانية عشر الف مقاتل، وبعد ان اخبرهم طالوت ان من يشرب الماء ليس له الحق في الاستمرار في البقاء في صفوف جيشه شرب منهم اربعة عشر الفاً حد الارتواء وبذلك انسحبوا من جيش طالوت وبقي معه اربعة الاف فقط، وفي هذا دلالة على ان الجيش لو دخل المعركة بمجموعه الذي كان عليه قبل شرب ماء النهر لكانت الهزيمة هي النتيجة الحتمية للمعركة، ذلك لأنه سيخوض المعركة بروح انهزامية مع ما لجيش جالوت من سمعة عسكرية فهو الجيش الذي حقق مع قائده الانتصارات تلو الانتصارات، فخوض معركة غير متكافئة من ناحية الجانب النفسي للمقاتلين واخلاصهم لقضيتهم ستكون نتيجتها الهزيمة لا محالة.

وهكذا كان شرب ماء النهر هو المائز الذي لا يقبل الشك فمن شرب من النهر عاد ادراجه ومن اغترف غرفة بيده استمر في مسيرته في سبيل تحقيق اهدافه التي يؤمن بها في اعادة سطوة دولة التوحيد وتحرير بني اسرائيل من الذل والهوان الذي يعيشوه، فعبر اولئك المؤمنون المخلصون المضحون النهر واستعدوا لبذل النفوس رخيصة في سبيل القضية التي يريدون خوض الحرب لأجلها.

ومن هنا يتبين ان الذين عبروا النهر مع طالوت كانوا مشاريع استشهاد في سبيل قضيتهم، وهذه الروحية لا تتحقق عند كل احد، وهذا المعنى الاستشهادي كان هو السبب في فشل العدد الاكبر من جيش طالوت في تجاوز الاختبار الذي تعرضوا له، فما قام به غالبية جيش طالوت ناشئ من التمسك بالحياة الدنيا وملذاتها وان كانت على حساب القيم والمبادئ والأخلاق والعزة والكرامة.

الامر الثالث: قتل جالوت

كان جالوت شخصية مهمة وقائدا عسكرياً لا يشق له غبار، وكان اذا اشتد وطيس الحرب يخوض في اوساط جيش اعدائه وكان يقود قواته من نصر الى نصر، فكان وجوده عنصر قوة نفسية لقواته وعنصر مهم لفرض هيبة السلطة على المجتمعات الخاضعة لسلطانه، ولذا كان القضاء على جالوت في المواجهة الفاصلة مسالة في غاية الاهمية في المواجهة الاولى بين جيش طالوت وجيش جالوت.

وفي سبيل تحقيق الغاية والارادة الالهية اختار الله تعالى داود (عليه السلام) للقضاء على جالوت ومهد لداود (عليه السلام) سبل القضاء عليه.

وعند النظر في مجريات الحرب بين الجيشين نجد ان ليد الغيب الدور الكبير في تحقيق النصر لبني اسرائيل ذلك لان:

أـ ان الله تعالى عين الشخصية المؤهلة لقيادة بني اسرائيل في هذه المرحلة على اساس كفاءته العلمية والجسدية.

ب ـ حدد الشخصية التي يتوجب عليها استهداف جالوت استهدافاً مباشراً والقضاء عليه وهو داود (عليه السلام) .

ج ـ رسم لطالوت الآلية المناسبة لإبعاد العناصر الانهزامية والانتهازية عن جيشه والتي حققها في قضية الاختبار بالشرب من ماء النهر.

بنو اسرائيل بين حكم ال داود حتى ولادة المسيح (عليه السلام)

تقدم ان بني اسرائيل طغوا وتجبروا وعصوا الله وارتكبوا المحرمات وتحاسدوا وتباغضوا وتشتت امرهم فغزاهم العماليق ثم تابوا وصدقوا الله فبعث الله لهم طالوت ملكا وهزم طالوت العماليق وقتل داود (عليه السلام) جالوت.

فعادت دولة التوحيد لتحكم في ارض الشام وبعد وفاة طالوت ملكهم داود (عليه السلام) فجمعت له النبوة والملك وبعد داود (عليه السلام) ملكهم سليمان (عليه السلام) فسال الله ان يهبه ملكا لا ينبغي لاحد من بعده فسخر الله تعالى له الجن والشياطين والريح وعلمه منطق الطير حتى اصبحت جميع المخلوقات طوع امره وامتد سلطانه الى سبأ بعد ان جاءت ملكتهم بلقيس اليه وقد اعلنت اسلامها في قصة الصرح الممرد وهذا يعني ان ملك سليمان (عليه السلام) امتد من بلاد الشام الى اليمن وبعض الروايات الى انه ملك بلاد العراق وفارس.

(يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ۚ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ)[66]

(وَوَهَبْنَا لِدَاوُودَ سُلَيْمَانَ ۚ نِعْمَ الْعَبْدُ ۖ إِنَّهُ أَوَّابٌ ، إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِنَاتُ الْجِيَادُ ، فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ ، رُدُّوهَا عَلَيَّ ۖ فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ ، وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ ، قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي ۖ إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ ، فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ ، وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ ، وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ ، هَٰذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ، وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَآبٍ)[67]

وبعد وفاة سليمان (عليه السلام) وخليفته عاد بنو اسرائيل للمعاصي واقتراف الآثام والذنوب وقتلوا الأنبياء وجرت بينهم الحروب حتى اقاموا عاصمتين احداهما يهوذا والاخرى الناصرة وكانت احداهما تنتصر على الاخرى بأعدائهما فتحالفت احداهما مع المصريين والاخرى مع البابليين، حتى اذا غزا المصريون حلفاء بابل انتصاراً لحلفائهم هاجمهم البابليون وانهوا بذلك ملك اليهود في الشام ولم تعد لهم دولة مستقلة وساق نبوخذ نصر اسارى اليهود الى مملكته في بابل فتوزعوا في ارض العراق وجزيرة العرب وبلاد فارس، حتى ظهر الملك كورش الفارسي

[66] ص: 26
[67] ص: 30 - 40

الذي انهى الدولة البابلية وزحف بقواته حتى فتح مصر فخير بني اسرائيل بين البقاء في المناطق التي انتقلوا اليها والعودة الى الشام فاختار غالبيتهم البقاء في البلدان التي انتقلوا اليها لانهم اصبحوا فيها من ذوي الاملاك الواسعة وعاشوا بأمن وطمأنينة في ظل الدول الكافرة بنحو افضل مما عاشوه في ظل حكمهم لأنفسهم واتسعت تجارتهم وكثرت اموالهم، واختار القسم الاخر العودة الى بلاد الشام على امل ان يعيدوا بناء دولتهم التي انهارت على يد البابليين، فعادوا الى الشام واعادوا بناء المعبد الذي بناه سليمان (عليه السلام) وكانوا يتمتعون برعاية خاصة من قبل الملك كورش ولكنهم لم يتمكنوا على اعادة بناء الدولة المستقلة في ارض الشام، بل بقوا رعايا في ظل الدولة الفارسية حتى غزا الرومان مصر واحتلوا بلاد الشام فاصبح بنو اسرائيل رعايا في الدولة الرومانية الوثنية.

ومن خلال السرد المتقدم الذي تناولنا فيه ابتلاء بني اسرائيل سواء منه ما كان يعد في عرف الناس ابتلاءاً ايجابيا كما في حال وصولهم الى سدة الملك وتمكنهم من قيادة زمام امور الشام واخرى الابتلاء الذي يعد في نظر الناس سلبيا كوقوعهم تحت سلطان غيرهم وما تعرضوا له من ظلم وقهر يمكن ان نسجل الامور الاتية:

الاول: ان الله تعالى مهد لإعداد بني اسرائيل للإدارة الفنية للدولة بعد ان حولهم من مجتمع بدوي الى مجتمع حضري نتيجة هجرتهم من بادية الشام الى مصر.

الثاني: ان التأثير السلبي للحضارة الوثنية المصرية والنفسية الإنهزامية التي عاشها بنو اسرائيل نتيجة الظلم والقهر الذي تعرضوا له في مصر كانت سبباً في تأخر استحقاق بني اسرائيل فتح الارض المباركة اربعين سنة الى ان تم تطهير المجتمع من تلك الرواسب ومن الاشخاص الذين يحملون تلك الاثار السلبية.

الثالث: بعد تأهل مجتمع بني اسرائيل لإقامة دولة التوحيد يسر الله لهم سبل اقامة دولتهم في بلاد الشام تحت رعاية الأنبياء ابتداءاً من يوشع (عليه السلام).

الرابع: ان الانحراف الفكري والأخلاقي الذي اصاب بني اسرائيل وتنازعهم على شؤون الدنيا الزائلة ادى الى تشتت شملهم وتفرقهم ثم انهيار سلطانهم امام سطوة قبائل العماليق التي سبق لهم ان هزموها وملكوا ارضها.

الخامس: بعد ان شعر بنو اسرائيل بالخطأ الكبير الذي ارتكبوه دعوا نبيهم ان ينصب لهم ملكا يقاتلون تحت لواءه لإعادة حكم التوحيد على الارض نصب الله لهم طالوت ملكا لما اتسم به من خصال وملكات ومكنهم من اعادة سلطانهم على الشام وبعد وفاته ملكهم داود ثم سليمان (عليهما السلام) فجمع لهما النبوة والملك ثم اظهر لهم عظيم قدرته بما وهب لسليمان (عليه السلام) من ملك عظيم.

السادس: من خلال قراءة تاريخ بني اسرائيل في مسالة الحرب مع العماليق يتضح ان غالبية بني اسرائيل لم يكونوا مخلصي النية وان من اخلص نيته مع الله وصدق مع ربه تعالى كانوا هم الفئة الاقل ولكن الله تعالى مكن هؤلاء من الارض، وهذا يعني ان قيام دولة الحق تتحقق وان لم يكن جميع المجتمع قد وصل الى درجة الكمال المطلوبة الا ان تحقق النصر لن يتحقق مالم يكون هناك عدد من المخلصين الاتقياء الصادقين المخلصين الذي تجري احكام الله على ايديهم.

السابع: من خلال قراءة الحدث كوحدة واحدة ابتداءاً من حادثة القاء يوسف (عليه السلام) في غيابة الجب وحتى انهيار دولة بني اسرائيل على يد نبوخذ نصر يمكن ان يقال ان الله تعالى يمنح المجتمع عدة فرص للعودة اليه والانابة الى ساحة قدسه فان اختار المجتمع طريق الضلال واتباع الهوى بعد الفرص المتعددة التي يمكنهم الله تعالى منها عندئذ يسلب منهم النعمة التي وهبها اياهم.

الثامن: كانت الفرصة الاخيرة التي منحها الله تعالى بني اسرائيل نصب طالوت وحكم داود وسليمان (عليهما السلام) ذلك لان النعمة الاولى لهم كانت في هجرتهم الى مصر في ظل حكم يوسف (عليه السلام) والملك اخناتون ولكنهم بعد ذلك عصوا وارتكبوا الآثام فسلط الله عليهم الاقباط حتى ظهر موسى (عليه السلام) فانقذهم مما هم فيه ولكنهم عادوا للمعصية بمجرد ان عبروا اليم عادوا الى المعصية فعاقبهم الله بالتيه اربعين سنة ثم من عليهم بان ادخلهم الارض المباركة واقاموا دولتهم فيها ولم تمض الايام حتى عادوا للمعصية وارتكاب المعاصي والآثام فسلط الله عليهم العماليق حتى تابوا فبعث الله لهم طالوت ملكا ثم جمع الملك والنبوة لداود وسليمان (عليه السلام) وبعدهما عادوا للظلم والمعصية اشد مما كانوا فكانت هذه اخر فرصة لهم كمجتمع مؤهل لإقامة دولة التوحيد فسلط الله عليهم البابليين فقضوا على دولتهم ولم يعد لهم دولة مستقلة وبعدها واصبحوا رعايا للدولة الفارسية والرومانية على التعاقب.

التاسع: مجتمع بني اسرائيل يمكن ان يقرا بطريقة ثانية وهو تارة بالنظر الى المجتمع كوحدة واحدة وهو ما قد تقدم بيانه في النقطة السابقة، وتارة يلحظ افراد المجتمع كل على حدة وهنا سنجد ان المجتمع يتألف من افراد يختلفون بخصالهم وصفاتهم وتوجهاتهم ومما لا شك فيه ان المجتمع ينقسم بالحاظات السالفة الى فئات متعددة وكل فئة تنقسم الى فئات اخرى ففيهم الانسان الصالح المنقطع الى الله وفيهم العصاة المردة المتجبرون وفيهم طبقات تقع بين هاتين الطبقتين وفي كل من هذه الطبقات اصناف بحسب قوة الالتزام وضعفه، والسمة العامة التي اتصف بها بنو اسرائيل انهم كانوا مجتمع توحيد على الرغم من تحريفهم الكتاب وكثرة المعاصي التي ارتكبوها حتى وصل بهم الحال الى قتل الأنبياء كما فعلوا مع زكريا ويحيى (عليهما السلام).

وخلاصة القول ان مجتمع بني اسرائيل كان قد حمل مسؤولية الدعوة الى الله حتى مع فقدانه اهلية اقامة دولة التوحيد على الارض.

(يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ)[68]

بنو اسرائيل والتلاقح الحضاري

من الابتلاءات الكبرى التي واجهت مجتمع بني اسرائيل في مرحلة ما بعد انهاء دولتهم التي اثبتوا كمجتمع عدم اهليتهم لحمل الامانة الالهية واقامة حكم الشرع الالهي على الارض هي مسالة الابتلاء بولادة النبي عيسى (عليه السلام).

[68] البقرة: 47

البشارات الالهية على لسان الأنبياء وصلت الى مجتمع بني اسرائيل بولادة يحيى وعيسى (عليهما السلام) والنبي محمد (صلى الله عليه واله).

فكانت البشائر الالهية بمنجي بني اسرائيل من الذل الذي عاشوه يسري في المجتمع الاسرائيلي الذي ينتظر الانعتاق من ظلم ملوك بني اسرائيل المرتمين في احضان الرومان ومن ظلم كهنة المعابد الذين سخروا الدين لمنافعهم الشخصية ومن الظلم الاجتماعي الذي كان يتعاطاه ابناء المجتمع فيما بينهم، فكان انبياء بني اسرائيل ومستضعفوهم ينتظرون ساعة الخلاص.

وتشير النصوص ان حكماء من الفرس كانوا يتوقعون من خلال العلامات الفلكية وحركة النجوم ظهور النبي المخلص لبني اسرائيل وهذا يكشف ان العلوم والمعارف التي كان يبثها انبياء بني اسرائيل وصلت الى المجتمع الفارسي وان الفرس كانوا يعتقدون بصدق الاخبار التي وردتهم من طريق حملة التوراة بعد السبي البابلي لبني اسرائيل[69].

وهنا من المهم ان نشير الى ان الكثير من الدراسات التي قام بها الاكاديميون عند البحث في تراث الشعوب واساطيرهم وادابهم تؤشر الى وجود اثار مهمة لانتقال الاخبار التوراتية الى حضارات المجتمعات الاخرى بحيث اثرت في نظرتهم الى بداية الكون والتاريخ الانساني على الارض، فالحضارة الهندية والصينية والفارسية فضلا عن الحضارات الرومانية واليونانية والمقدونية جميعها تشير الى وجود الانسان الاول على الارض والى حادثة الطوفان وغرق الارض الذي تسبب عن غضب الهي نتيجة لمعصية اهل الارض، كما ان الاكتشافات الاثارية في تلك البلدان تشير الى وجود المجتمع البشري فيها في الفترة التي تعاصر الفترة المقاربة لوجود النبي ابراهيم (عليه السلام)، وفي الوقت ذاته تشير التنقيبات الاثرية الى ان مبدا الحياة البشرية على كوكب الارض كان في ارض وادي الرافدين قبل ظهور الفرس والمصريين فضلا عن المجتمعات البشرية الاخرى. كما تشير التنقيبات الاثرية الى ان انتشار المجتمع البشري كان نتيجة هجرة الاقوام من مناطق تواجدها الاول الى مختلف مناطق المعمورة.

ومن هنا يتبين ان التلاقح الحضاري بين مجتمعات العالم القديم كان لنبوءات بني اسرائيل فيه الاثر الكبير وان ذلك الاثر اتسع وانتشر بعد قيام دولة بني اسرائيل في بلاد الشام لكونها ملتقى الحضارات الكبرى في العالم آنذاك اذ كانت تمثل حلقة الوصل بين البابليين والفرس الذين يسكنون شرق وجنوب حدود مملكة بني اسرائيل والفراعنة الذين يسكنون غرب مملكتهم، فضلا عن العرب في اليمن وشبه الجزيرة العربية.

كما كان للسبي البابلي اثره الكبير في انتشار القيم الحضارية لبني اسرائيل في مختلف البلدان التي انتشروا فيها بعد انهيار مملكتهم كبلاد بابل وفارس والهند والصين بل بلغ اثرهم ان اعتنق بعض ملوك اليمن الديانة اليهودية ـ وهذا يدل على ان الديانة اليهودية لم تكن مختصة ببني اسرائيل بل كانت دعوة هداية للمجتمع البشري وان كان اغلب معتنقيها هم بنو اسرائيل ـ هذا فضلا عن تأثير حضارة بني اسرائيل بالحضارة المصرية وتأثير تلك الحضارة بالمجتمع الرومي ـ الاناضول ـ كان الروم ايضا متأثرين بالجوانب الحضارية التي كانت في بلاد الشام، وتشير جملة من النصوص ان ايوب النبي (عليه السلام) كان يعتبر من الروم وانه لما ابتلي

[69] انظر بحار الانوار وتاريخ الطبري الجزء الاول قصص الانبياء للجزائري وابن كثير الفصل المختص بولادة عيسى (عليه السلام)

بالمرض كان يسكن في بلاد الشام، وهذا ان دل على شيء انما يدل على التلاقي الحضاري بين الامم والمجتمعات في تلك الحقب الزمنية.

مضت اجيال كثيرة بين اخر دولة مستقلة لبني اسرائيل وولادة عيسى (عليه السلام) في تلك الفترة اعاد بنو اسرائيل كيانهم في مناطق سيطرتهم في بلاد الشام ولكنهم كانوا تابعين للإمبراطوريات الكبرى التي حكمت العالم انذاك ففي بداية عودتهم لبلاد الشام كانت الامبراطورية الفارسية هي الامبراطورية الاعظم على الارض حيث مدت نفوذها شرقا في الهند وفارس وجزيرة العرب وغربا في بلاد الرافدين والشام ومصر، واستمر الحال كذلك حتى ظهر الاسكندر المقدوني وبدأ بفتوحاته الكبرى فأصبحت الكرة الارضية بتمامها تخضع لسلطانه وبعد وفاته عادت الامبراطورية الفارسية من جديد مع انحسار سلطتها عن الشام ومصر ليحل الرومان محلها في تلك الارض، وبذلك تحول بنو اسرائيل في بلاد الشام الى رعايا في الدولة الرومانية[70].

على الصعيد الداخلي لبني اسرائيل يمكن ان يلاحظ ان القوى المؤثرة في المجتمع الاسرائيلي تنقسم الى عدة اقسام:

أ- السلطة الزمنية ب ـ المعبد ج ـ الأنبياء د ـ القوى الاجتماعية

أ- في هذه المرحلة من عمر بني اسرائيل كانت السلطة الزمنية تدار من قبل ملوكهم الذين يتداولون السلطة وراثيا، وكما هو الحال في بقية ملوك الارض اختلفت توجهاتهم باختلاف قوة شخصياتهم ورغباتهم ونزعاتهم وميولهم حتى ورد في بعض الروايات التاريخية ـ لا نجزم بصحة هذه الروايات ـ ان بعض ملوك بني اسرائيل كانت لهم اوثان يعبدونها، وكذلك فان قرب الملوك من المعبد والأنبياء واتباع احكام الشريعة يختلف باختلاف التزامهم وتوجههم الروحي.

ب ـ المعبد وهو المؤسسة الدينية المسؤولة عن الجانب الروحي والتشريعي في المجتمع الاسرائيلي وظهر بين قيادات المعبد البعض ممن سخروا الدين لمصالحهم الشخصية وتلاعبوا بأحكام التوراة تبعا لما تقتضيه مصالحهم ومنافعهم، وكان زعماء المعبد يمثلون الجانب الرسمي للسلطة الدينية في المجتمع الاسرائيلي.

ج ـ الأنبياء، جرت السنة الالهية في بعث الأنبياء الى بني اسرائيل بحيث لم تخل فترة زمنية من نبي فيهم منذ ان بعث يعقوب (عليه السلام) وحتى بعثة النبي عيسى (عليه السلام) وكان أنبياء بني اسرائيل في الفترة ما بين النبي ابراهيم (عليه السلام) والنبي موسى (عليه السلام) يحكمون تبعا لتعاليم شريعة النبي ابراهيم (عليه السلام)، وبعد نزول التوراة على موسى (عليه السلام) اصبحت احكام التوراة هي الشرع الجديد لمجتمع بني اسرائيل، فالتوراة كانت تتضمن التشريع الالهي الذي يتناسب مع ضرورات المرحلة الجديدة التي سيعيشها المجتمع الاسرائيلي بعد ان يسكنوا الارض المباركة التي كتبها الله لهم والتي ستكون لهم السلطة الزمنية فيها في ظل حكم يوشع بن نون (عليه السلام).

[70] انظر ول ديورانت قصة الحضارة الشرق الادنى

د ـ القوى الاجتماعية، في كل مجمتع هناك قوة اخرى غير القوى الثلاثة التي اشرنا اليها، وهي القوة المجتمعية التي تتألف من التجار والزعامات القبلية صاحبة التأثير الواسع على شرائح المجتمع المختلفة، كما تعتبر مصدرا مهما لدعم السلطتين الزمنية والدينية في مختلف العصور والحضارات والمجتمعات.

وعند قراءة واقع القوى الفاعلة في مجتمع بني اسرائيل في الفترة الواقعة بين سقوط الدولة اليهودية وحتى ولادة السيد المسيح (عليه السلام) نجد ان الأنبياء (عليهم السلام) كانوا محاربين من قبل الشخصيات المؤثرة في القوى الثلاث فالملوك ورؤساء المعابد وكبار الملاكين كانوا بعيدين عن مقتضيات الدين والتشريعات الالهية والى هذا المعنى اشارت العديد من الايات الكريمة:

(وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْكُمْ وَأَنْتُمْ مُعْرِضُونَ ، وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ ، ثُمَّ أَنْتُمْ هَٰؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِنْكُمْ مِنْ دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِمْ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَإِنْ يَأْتُوكُمْ أُسَارَىٰ تُفَادُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ ۚ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ۚ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۖ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰ أَشَدِّ الْعَذَابِ ۗ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ، أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ ۖ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ)[71]

ولادة عيسى (عليه السلام)

كانت ولادة عيسى (عليه السلام) ابتلاءاً الهياً لمريم وزكريا (عليهما السلام) ولمجتمع بني اسرائيل.

اما السيدة مريم (عليها السلام) فللمتأمل ان يقف عند عظيم الابتلاء الذي تعرضت له فهي (صلوات الله عليها) ومنذ ولادتها كانت القمة في سلم الكمال حتى بلغ من كمالها ان الملائكة تخاطبها وهي في محراب عبادتها لتخبرها ان الله تعالى اصطفاها وطهرها من كل دنس واختارها من بين نساء الارض لمهمة عظيمة ورسالة جليلة

(وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَىٰ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ ، يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ)[72]

فاختار الله لها تعالى من بين الرجال خير الاباء النبي عمران (عليه السلام) واسكنها في احشاء اطهر الامهات وتقبلها ربها بقبول حسن وانبتها نباتا حسنا وصرف عنها كيد مردة بني اسرائيل في صغرها وكفلها خير البشر النبي زكريا (عليه السلام) وبذلك صدحت ايات الذكر الحكيم

[71] البقرة الايات 38 - 86
[72] ال عمران 42 - 43

(إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ ، ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ ۗ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ، إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي ۖ إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ، فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَىٰ ۖ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ، فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ۖ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا ۖ قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ۖ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ۖ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ)[73]

وتتميماً للحجة على بني اسرائيل اظهر الله تعالى على يد مريم (عليها السلام) الكرامات التي لا تصدر الا عن الأنبياء العظام والاولياء الكرام اولي مراتب القرب الخاصة من ساحة القدس الالهي، حتى اذا اصبح ذكر اسم مريم (عليها السلام) مقرونا بالتقديس على جميع الالسن واستقر في قلوب صلحاء وعوام بني اسرائيل الاحترام العظيم لهذه السيدة الطاهرة امتحن الله بني اسرائيل بحمل مريم (عليها السلام) بعيسى (صلوات الله عليه) من غير اب، وكان لهذا الامتحان الالهي لجميع طبقات بني اسرائيل علمائهم وعوامهم دور مهم في تحديد مستقبلهم على الارض، فالابتلاء للاستعداد والامتحان من الله والفوز والخسران بحسب طاعة العبد لربه.

بنو اسرائيل وولادة عيسى (عليه السلام)

بولادة عيسى (عليه السلام) دق ناقوس الخطر اجراسه على مصالح كهنة المعبد ومنافعهم وسلطانهم الروحي على مجتمع بني اسرائيل لان ولادته (عليه السلام) المعجزة الالهية التي يرافق حلولها تصحيح الانحراف الذي ارتكبته الزعامة الدينية الكهنوتية للاحبار والسلطة الزمنية لملوكهم.

فكان الاختبار الاعظم لطبقتي الكهنة والملوك لما يتهدد مصالحهم ومواقعهم في السلطتين الدينية والزمنية، فما كان منهم الا الاتهام والطعن وتوهين المقام القدسي للمصطفاة على الخلق وعلى نساء العالمين، وقد ترك هذا الامر اثره البالغ في القلب الطاهر لسيدتنا مريم (عليها السلام) وترك في وجدانها واحاسيسها جرحا كبيراً حتى انها تمنت الموت على ما هي فيه عند ساعة المخاض

(وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ، فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ، قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَٰنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا ، قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا

[73] ال عمران 33 - 37

، قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ، قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ ۖ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا ۚ وَكَانَ أَمْرًا مَقْضِيًّا ، فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنْتُ نَسْيًا مَنْسِيًّا)[74]

ان شدة الابتلاء الذي تعرضت له السيدة مريم (عليها السلام) والذي ترك فؤادها مكلوما استدعى اللطف الالهي ان يسري السكينة في قلبها ويعلمها ان ما جرى عليها من ابتلاء انما هو ضمن الارادة الالهية لنشر احكامه وتعاليم دينه على الارض وان المجتمع الانساني بحاجة الى ظهور معجزة من شانها ان تهز الوجدان العام وان محور هذه المعجزة هو ذاتها المقدسة

(فَنَادَاهَا مِنْ تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ، وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ، فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا ۖ فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا)[75]

ولم يتورع مردة بني اسرائيل عن رمي مريم (عليها السلام) ان بهتوها واتبعهم على ذلك المجتمع الظالم متناسيا الهالة القدسية التي كانت لها في وجدانهم والمقام السامي الذي كان لها في قلوبهم ولم ينتظروا ان يسمعوا منها كيف حملت بوليدها ذلك لان الماكنة الاعلامية التي كان يديرها اصحاب النفوذ كانت تعمل على تحطيم شخصية مريم وعيسى(عليهما السلام) لان الكهنة وارباب السلطة كانوا يرون في عيسى (عليه السلام) خطرا يهدد مكاسبهم وسلطانهم الذي احتوشوه منذ مئات السنين

(وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا)[76]

ولكن ارادة الله ومشيئته اعظم من كيد الظالمين واقوى من بغي الجاحدين فشاءت ارادته ان تفضح واقع كهنة المعبد وتظهر حقائقهم الظالمة وتبين لعموم بني اسرائيل ان المتلبسين بلباس الدين هم ابعد الناس عن الله وهم احد الاسباب المهمة في انحراف مجتمع بني اسرائيل عن جادة الحق رعاية لمصالحهم الدنيوية واتباعا لاهوائهم ومشتهياتهم.

ويحدثنا القران الكريم عن اللحظات العصيبة التي مر بها مجتمع بني اسرائيل الذي تاه بين طهر مريم (عليها السلام) ونقاءها وقدسيتها وبين اتهام الكهنة لها، وكيف ان الله تعالى برء ساحة مريم (عليها السلام) وفضح الظالمين العتاة المردة

[74] مريم 16 - 23
[75] مريم 24 - 26
[76] النساء 156

(فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ ۖ قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا ، يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ، فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ ۖ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا ، قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ، وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ، وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ، وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا)[77]

وغدا الصراع على اشده بين السلطة الزمنية وكهنة المعبد من جهة وزكريا (عليه السلام) من جهة اخرى حتى دفع زكريا ويحيى (عليهما السلام) حياتهما ثمنا للدفاع عن دين الله واحكام شرعه، فراح زكريا (عليه السلام) ضحية مؤامرات كهنة المعبد وجهل العامة ويحيى (عليه السلام) ضحية طغيان الملوك وفسقهم وفجورهم

(وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ ۖ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ ۗ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَىٰ أَنْفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ، وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ ۚ بَلْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَا يُؤْمِنُونَ)[78]

ولم يقف طغيان بني اسرائيل عند هذا الحد بل استمر صراعهم طويلا مع عيسى (عليه السلام) حتى حاولوا قتله وصلبه فرفعه الله اليه وتركهم في ظلالهم

(وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ ۚ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ ۚ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا ، بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا)[79]

ويقرر القران الكريم ان سبب عداء بني اسرائيل لعيسى (عليه السلام) هو اتباع الهوى وعبادة النزوات والرغبات والحرص على المنافع الدنيوية والمكاسب الزائلة

(بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ بَغْيًا أَنْ يُنَزِّلَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ۖ فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ ۚ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ)[80]

وفي هذه المرحلة من حياة بني اسرائيل ظهر تطور جديد في مرحلة الصراع والابتلاء، ففي مرحلة ما قبل نبوة عيسى (عليه السلام) كان الصراع تارة بينهم وقوى الكفر المحيطة بهم سواء الامبراطوريات العظمى او المجتمعات القبلية، او يكون الصراع بنيهم على الرئاسة والزعامة والملك والمنافع الدنيوية، وهذه الفترة امتدت منذ خروجهم من مصر وحتى بعثة عيسى (عليه السلام)، اما بعد بعثة عيسى (عليه السلام) فاضيفت جهة صراع جديدة وهم اتباع عيسى (عليه

[77] مريم 27 - 32
[78] البقرة 87 - 88
[79] النساء 157 - 158
[80] البقرة 90

السلام) الذين انسلخوا عن مجتمع بني اسرائيل واسسوا لانتشار تعاليم المسيح (عليه السلام) ما عرف بالديانة النصرانية

(وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ ۖ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ ۖ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ اللَّهِ ۖ وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ، وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَلِأُحِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ ۚ وَجِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ، إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ ۗ هَٰذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ، فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ ۖ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ آمَنَّا بِاللَّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ)[81]

واستمر الصراع بعد عيسى (عليه السلام) بين اتباع انصاره وبين بني اسرائيل حتى اعتنق احد اباطرة الرومان النصرانية فانتشرت تعاليمها في بلاد الشام ومصر واوربا واصبح لها اتباع في جزيرة العرب واليمن وبلاد فارس وروسيا والهند والصين.

ولم ينج اتباع الصليب من الاختلاف، فاختلفوا كما اختلف الذين من قبلهم حتى تعددت مذاهبهم واراؤهم واختلفت كنائسهم وكفر بعضهم بعضا وكل ذلك نتيجة الصراع على الدنيا الفانية والبعد عن احكام الله تعالى وتعاليم انبياءه (عليهم السلام).

بنو اسماعيل في جزيرة العرب

بعد ان انبع الله تعالى لال ابراهيم (عليه السلام) زمزم عند الكعبة المشرفة طلب قوم من العماليق ان يجاوروهم فاذن لهم ال ابراهيم (عليه السلام) بمجاورتهم فسكنوا المناطق المحيطة بمكة، فيما كان إدارة شؤون البيت الحرام لاسماعيل (عليه السلام).

وتشير النصوص التاريخية الى ان العماليق وبعد ان طال بهم الزمن في مجاورة مكة بدأوا يتطاولون على حرمة مكة المكرمة، فمهد الله تعالى لازاحتهم عن حرمه ان اصاب المناطق التي تسكنها قبيلة جرهم اليمنية قحط فهاجروا طلبا للماء والكلأ فما زالوا يحلون ويرحلون حتى وصلوا مكة المكرمة فسكنوا في اطرافها واحاطوا بها فسكن بعضهم اعلاها والبعض الاخر اسفلها، وفي بعض زيارات النبي ابراهيم (عليه السلام) الى مكة التقى بهم وامر اسماعيل (عليه السلام) ان يتزوج منهم، فصاهرهم اسماعيل (عليه السلام) وانجبت له الجرهمية اربعة اولاد اكبرهم نابت بن اسماعيل (عليه السلام) الذي كانت اليه إدارة امور مكة والبيت الحرام بعد ابيه (عليه السلام).

[81] البقرة 49 - 52

في هذه المرحلة الزمنية ابتلى الله تعالى العماليق بالوان الابتلاء في اجسادهم فاضطروا الى مغادرة مكة ووقع بينهم وبين جرهم نزاع فهزم الجرهميون العماليق وطردوهم من مكة.

بعد وفاة نابت بن اسماعيل (عليه السلام) اصبحت شؤون مكة بيد مضاض بن عمرو الجرهمي كبير الجرهميين وزعيمهم وجد نابت لامه، وقد راى الجرهميون كيف ابتلى الله تعالى العماليق لانتهاكهم حرمة مكة المكرمة فكان ذلك سبب في توقيرهم للبيت الحرام ومكة المكرمة ومضت على ذلك منهم الاجيال عقب الاجيال، وكان بنو اسماعيل (عليه السلام) يعيشون الى جنبهم، وبعد ان طال بالجرهميون الامد في مجاورة البيت الحرام دعتهم النفس الامارة بالسوء الى ما دعت العماليق من قبلهم بل زادوا عليهم حتى انهم انتهكوا حرمة الكعبة وتمادوا كثيرا فاذن الله بزوالهم.

وفي تلك الحقبة من تاريخ بني اسماعيل (عليه السلام) في مكة غادر ثعلبة بن عامر بن حارثة القحطاني الذي كان يسكن مأرب محل سكناه بعد ان شعر ان سد مأرب سوف ينهار وان المنطقة التي يسكنوها ايلة الى الزوال، فسار بقومه وكان لا ينزل حيا الا غلب اهله عليه، فلما وصل مكة استاذن الجرهميون ان يجاورهم حتى يعود اليه رواد قومه الذين ارسلهم للبحث عن بلاد يرتحلون اليها، فأبى الجرهميون ان ياذنوا لهم، فوقعت بينهم الحرب وانتصر فيها ثعلبة وقومه وملكوا امر مكة وطردوا الجرهميين واستاذنهم بنو اسماعيل (عليه السلام) ان يجاوروهم في مكة فاذنوا لهم، اذ كان بنو اسماعيل (عليه السلام) في حالة ضعف شديد وقلة حيلة.

ثم تفرق القحطانيون في الارض فمنهم من سكن الشام وهم الغساسنة ومنهم من سكن الحيرة وهم المناذرة ومنهم من سكن يثرب وهم الاوس والخزرج ومنهم من بقي في مكة وهم خزاعة.

قام الخزاعيون بأمر مكة افضل قيام واعظموا حرمة مكة والبيت الحرام حتى مضت على ذلك منهم اجيال تلو الاجيال والديانة السائدة في جزيرة العرب انذاك هي الحنيفية وشريعة النبي ابراهيم (عليه السلام) التي انتشرت في جزيرة العرب منذ ان انبثق زمزم واخذت قبائل العرب في رحلتها بين اليمن والشام تمر بمكة فتطوف بالبيت وتؤدي فيه النسك وتاخذ احكام شرعها من اسماعيل (عليه السلام) وبنيه، حتى ولي امر خزاعة عمرو بن لحي الذي ادخل الى مكة الاصنام وجعل هبل اكبر صنم فيها.

والذي يظهر من الروايات التاريخية ان الجرهميون سادت مكة بعد ايام عدنان بن ادد والذي يظهر من الاخبار ان ذلك كان بعد مضي ملك سليمان بن داود (عليهما السلام) وزوال دولة

التوحيد في بلاد الشام، ولا يبعد ان ذلك وقع بعد السبي البابلي حيث تشير جملة من الروايات ان اليهود كانت لهم السطوة في يثرب عند نزول الاوس والخزرج فيها.

كما انه من المحتمل ان انتشار ديانة الشرك في جزيرة العرب كان بعد احتلال الرومان لمصر وبلاد الشام وقبل اعتناقهم المسيحية وان عمرو بن لحي الخزاعي تاثر بالرومان الوثنيين فاشترى الاوثان ونصبها في مكة، وفي تلك الفترة اعتنق الفرس الديانة المجوسية التي من المتوقع انها حرفت عن الديانة اليهودية او الحنيفية حيث كان النشاط في الدعوة الى الله منذ عهد النبي ابراهيم (عليه السلام) قد شمل مختلف المناطق تقع تحت سلطة بابل التي تسيطر على اغلب بقاع المعمورة مضافا الى نشاط النبي ابراهيم (عليه السلام) في مصر عند هجرته اليها.

ومن خلال قراءة سيرة الاحداث في جزيرة العرب يمكن ان يقال ان ابتلاء الاقوام في جزيرة العرب كان كابتلاء بني اسرائيل وان مسير الاحداث كانت ترسمه سيرتهم في طاعة الله او معصيته فكان ذلك سبب في هلاك امم وظهور اخرى.

(إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ ۚ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ ۗ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ)[82]

المصادر

القران الكريم

محمد بن جرير الطبري / تاريخ الطبري المعروف بتاريخ الامم والملوك / تحقيق وتعليق عبد علي مهنا/ منشورات مؤسسة الاعلمي للمطبوعات/ بيروت ـ لبنان الطبعة الاولى 1998

اسماعيل بن كثير الدمشقي / قصص الانبياء/ منشورات مكتبة النهضة بغداد ـ العراق الطبعة الاولى 1983

السيد نعمة الله الجزائري / النور المبين في قصص الانبياء / قدم له وعلق عليه علاء الدين الاعلمي منشورات مؤسسة الاعلمي للمطبوعات بيروت ـ لبنان الطبعة الثانية 2002

[82] ال عمران 140

ول ديورانت / قصة الحضارة / تقديم الدكتور محيي الدين صابر، ترجمة الدكتور زكي نجيب محمود نشر دار الجيل بيروت لبنان 1988